# رابعة العدوية

رضي الله عنها وأرضاها

إعداد

الأستاذ: **محمد عطية خميس**

قدم له فضيلة الأستاذ الدكتور

**عبد الحليم محمود**

شيخ الجامع الأزهر الشريف سابقًا

تصحيح ومراجعة

**مكتب الروضة الشريفة للبحث العلمي**

الناشر



رقم الإيداع ٢٠٠٦/٧٩٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٣٥]

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم

**١- تقديم للكتاب بقلم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل**

**الدكتور عبد الحليم محمود**

**شيخ الجامع الأزهر الشريف سابقا**

لقد نشأت الحضارة الحديثة مرتبطة بالمادة ارتباطاً وثيقاً، وأخلد زعماؤها إلى الأرض، لا يكادون يرفعون أبصارهم إلى السماء، ولا يحاولون أن ينظروا إلى آيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم، وآيات الله تغمر الإنسان أينما وجه بصره يراها فى هذا الإتقان المتقن، وفى هذا الإحكام المحكم من صنع الحكيم الخبير، إذا تأمل فى نفسه انبهر، وإذا تأمل فيما حوله عن روية خر ساجداً لمبدع الكائنات سبحانه، الذى صور الإنسان فأحسن تصويره، وقومه فأحسن تقويمه، وركب الكائنات فأحكم تركيبها.

وإذا نظر الإنسان إلى نعمة الله تغمره من جميع أقطاره، وإلى عنايته تحيط به فى جميع لحظاته، وإلى رعايته تتولاه فى كل طرفة عين، إذا نظر الإنسان إلى ذلك سجد لله حمداً وشكراً.

لكن الكثير من الناس، يمر على آيات الله ونعمه، فــلا يعيرونهــا التفاتا، ولا يأبهون لها لا ولا شروى نقير، إنهم ينسلخون منها، وصدقت عليهم الآية الكريمة، وصورتهم تصويراً دقيقاً:

**﴿واتْلُ عليْهِمْ نبأَ الَّذِيَ آتيْنَاهُ آياتنَا فانسلَخَ منْهَا فأَتْبَعَهُ الشَّــيْطَانُ فكانَ منَ الْغَاوِينَ ولَوْ شئْنَا لرَفَعْنَاهُ بهَا ولَـــكنَّهُ أَخْلَدَ إلَى الأَرْضِ واتَّبَــعَ هواهُ فمَثَلُهُ كمَثَلِ الْكَلْبِ إن تَحْمِلْ عَليْه يلْهَثْ أوْ تتْرُكْهُ يلْهَثْ : ذَّلكَ مثَلُ القَوْمِ الَّذينَ كَــذَّبُواْ بآيَاتِنَــا فَاقْصُــصِ الْقَصَــصَ لَعَلَّهُــمْ يَتَفَكَّــرُونَ﴾**
[الأعراف:١٧٥-١٧٦]

أخلد زعماء الحضارة الحديثة إلــى الأرض، واتبعــوا أهــواءهم ودمروا بذلك المثل العليا التى أتت بها الأديان، فكانت الحضارة الحديثــة مصدر شقاء للإنسانية، يتمثل فى هذه الحروب الطاحنة، وهذا الاستعمار الذى لا إنسانية فيه، وهذا التسابق إلى اختراع وسائل التــدمير والهــلاك الذى أنتج أمثال فاجعة هيروشيما وناجزاكى وغير ذلــك مــن الهــلاك والطاغوت.

واتجهت الحضارة الحديثة بالثقافة وبمناهج البحث وجهــة ماديــة وانحدرت بالشخصيات المثالية إلى مستويات تتناسب والاتجــاه المــادى وبدأ الممثلون لهذه الثقافة الانحدارية من المستشرقين ومن لف لفهم مــن الشرقيين يدرسون التصوف والدين على أساس مــن النزعــة الماديــة فأصابهم الإخفاق المتتابع والفشــل المتــوالى ذلــك أنهــم يتعارضــون ويتضاربون ويختلفون ويتناقضون، بل يصل الأمر بالكثير منهم إلــى أن ينقض اليوم ما بناه بالأمس، وأن يهدم فى حاضره ما بناه فــى ماضــيه

والأمثلة كثيرة، ولا تكاد توجد حقيقة ثقافية تتعلق بأمر التصوف أو بأمر الدين إلا وقد تضارب فيها المستشرقون ومن لف لفهم من الشرقيين واختلفوا وتعارضوا.

على أنهم لا يحيون بمنهجهم وبدراستهم هذه نفوساً خامدة، ولا يوقظون قلوباً غافلة، ولا يصورون مثلاً عليا للشبيبة، تنهج على منوالها خلقاً وسلوكاً، بل بالعكس من ذلك، فإن دراستهم للشخصيات المثالية ليس لها من نتيجة إلا النزول بالأخلاق، وبالمستويات العليا من المثالية السلوكية إلى المستوى المادى المنحدر، وإذا كانت تصور دراستهم هذه حقيقة ما فإنما تصور مستوى أخلاقياً منحدراً فى نفوسهم ينعكس على الصفحات التى يزعمون أنها تصور شخصيات صوفية، وهى لا تصور فى واقع الأمر إلا المستوى الذى بلغوا إليه هم، تُصَوِّر قلقاً، وتصور حيرة، وتصور انغماساً فى الملذات، تصور سلوكاً مادياً هو طابعهم وهو طابع الحضارة الحديثة.

نقول ذلك بمناسبة الكتابة عن السيدة رابعة العدوية لقد كثرت الكتب فى شأنها، ولكن الأكثر منها لا يتجه الاتجاه السليم فى البحث الصحيح. لم يحاول الكثيرون أن يعيشوا فى جو القرن الثانى الهجرى وفى جو السيدة رابعة، لم يحاولوا أن يتنسموا جو الإمام الثورى، ونسيم الحسن البصرى، وعبير الولاية ممثلة فى السيدة رابعة - رضوان الله عليها.

إن هؤلاء الصالحين جميعاً قد اعتصموا بالله، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم. وكل من يحاول أن يكتب عن بعضهم لا يتأتى له فهمهم إلا إذا كان معتصماً بالله محاولاً السير على نسقهم.

وإنه ليسعدنى أن نرى الأستاذ الفاضل عطية خميس، قد تحرر من هذا الجو المادى المنحدر الذى هو طابع الكثيرين ممن استعبدتهم المادية فى صورتها الحديثة، فلا يكادون يفهمون كلمات الدين والروح والمثل العليا، فضلاً عن فهم محبة الله والشوق إليه والأنس به.

لقد اعتصم الأستاذ عطية خميس بالله فهداه الله إلى الصراط المستقيم والسلوك القويم، هداه إلى ذلك فى تفكيره، وهداه إلى ذلك فى طابعه الأخلاقى والسلوكى؛ وهداه إلى ذلك فى قلمه معبراً عن تفكيره وسلوكه.

وكتب الأستاذ عطية خميس عن السيدة رابعة هذا الكتاب الذى بين أيدينا والذى نقدمه فى غبطة مغتبطة إلى القراء اليوم، كمثل من أحسن المثل وأجملها للكتابة القويمة، التى تعبر فى صدق عن هؤلاء الصالحين الذين ملأوا الأرض عبيراً جميلاً، يشع بالتقوى، ويفيض بالإخلاص.

ونقدمه، كمثال كريم، لنزعة كريمة تحاول أن تحيى النفوس وتوقظ الأفئدة وتوجه الشبيبة إلى الطريق الذى يرضاه الله ورسوله طريق الصدق والإخلاص والمحبة العامة الشاملة.

وإن الأستاذ عطية خميس بعمله هذا وبأمثاله يرضى الله ورسوله ويؤدى للوطن خدمة جليلة، وهى غرس الإيمان بالمثل العليا فى نفوس

بنيه. وإنما الأمم الأخلاق وإنما بعث رسول الله صلوات الله عليه، ليـــتمم مكارم الأخلاق. فشكر الله له، وجزاه خير ما يجزى العاملين المخلصين.

## ٢- مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آلـــه وصــــحبه ومن والاه أما بعد:

بعد أن مضى القرن الهجرى الأول أخـــذت الـــدنيا تقبـــل علـــى المسلمين، وأخذت الفتنة تتحسس طريقها إلى قتل الروح بإغراقهـــا فـــى حياة هائجة بالمادية العمياء، مائجة بالجدلية الحمقـــاء، فظهـــرت البـــدع والمنكرات، وتأخرت الأعمال، وتنافس النـــاس علـــى الـــدنيا، وبعثـــت الأرواح الشريرة من مكمنها، وهبطت النفوس من سماء الكمال والعبودية الحقة إلى حضيض النفس الأمارة بالسوء.

وكادت الحقائق تنقلب.. وكادت الأخطار تقتل الروح التى تجعـــل الناس يحسون بهذه الحياة.. وكادت الأصول تضيع فى غمرة السفسطة.. وهنا رأى السلف الصالح أنهم مجندون للعمل لحمايـــة الـــدين وإحيائـــه وتخليصه مما اندس عليه، فتكوّن منهم جيش عظيم انقســـم إلـــى ثـــلاث معسكرات، لكل معسكر مهمة، وعليه واجب.

ولم يكن انتظامهم فى ثلاثة معسكرات قد جاء عفوا، بل له أصله من الدين.. لأن جبريل ﷺ حينما ذهب إلى رسول الله ﷺ ليعلم المسلمين أمر دينهم سأله عن ثلاث: الإسلام.. والإيمان.. والإحسان[١]

ولذا، كان عمل المعسكر الأول الاحتفاظ بمقام الإسلام وحفظ فروعه وقواعده. وقادة هذا المعسكر هم الأئمة الأربعة وأتباعهم رضوان الله عليهم.

وكانت مهمة المعسكر الثانى، حفظ مقام الإيمان، وضبط أصوله وقواعده، وقادة هذا المعسكر الأشعرى وأشياخه وأصحابه.

وأما المعسكر الثالث فكان جهاده فى حفظ مقام الإحسان، وبيان ضوابطه وأحواله، على أسس من سنة الرسول ﷺ، ومن سادة هذا

---

(١) فقد روى عمر ﷺ: ((بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد، وجلس إلى رسول الله ﷺ، وأسند ركبتيه إلى ركبتيه، وجعل كفيه على فخذيه وقال: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال ﷺ: أن تشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت من استطاع إليه سبيلا. قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرنى عن الايمان. قال ﷺ: أن تؤمن بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، حلوه ومره. قال: صدقت. قال: فأخبرنى عن الإحسان. قال ﷺ: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: صدقت. قال: فأخبرنى عن الساعة. قال ﷺ: ما المسئول عنها بأعلم من السائل. قال: فما أماراتها؟ قال ﷺ: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاه يتطاولون فى البنيان، ثم انطلق. فقلنا يا رسول الله: من هذا؟ قال: هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم))

المعسكر الحسن البصرى وإبراهيم بن أدهم والجنيد ورابعة العدوية ومن على شاكلتهم.. رضى الله عنهم أجمعين.

والذى يهمنى فى هذا المقام أمر المعسكر الثالث.. ما حقيقة جهاده وعمله؟

إن للمعسكر الثالث خطتين: الخطة الأولى هى العمل لصقل النفس وتحليتها بالفضائل والمكارم، وتهذيب الروح بالنبل، وإعلائها نحو الكمال.. وهذا ما يسمى بالمعاملة. والخطة الثانية هى العمل على ترويض النفس على العبادة والمحبة، وما ينطوى تحتهما من المعانى التى تربط بين العبد وربه، وتقرب المخلوق إلى الخالق.. وهذا ما يسمى بالرياضة الروحية.

ورجال هذا المعسكر الثالث هم من أساتذة التربية، نظموا علم النفس قبل أن يطلق عليه مثل هذا الاسم وشرَّحوا النفس البشرية وسبروا أغوارها، وعرفوا ما تنطوى عليه من نوازع وأهواء قبل أن يعرف العالم شيئاً اسمه (علم النفس). ولم يكتفوا بهذا التشريح، ولكنهم فى الوقت ذاته عالجوا النفوس ببلسم الأخلاق، وجعلوا منها مادة دسمة لرواد الفضائل والمثل العليا.

ورابعة العدوية من شهيرات معسكر الإحسان كانت رائدة.. كانت أستاذة.. كانت صاحبة مدرسة جديدة.. حقاً، إنها لم تأت بجديد لأنها جاءت داعية إلى **حب الله، وحب الله** كلمة ليست غريبة على الأسماع، فقد سمعت من قبل ومرت على الآذان، ولكن رابعة جعلت من هذه الكلمة (ينبوعاً) تفجرت منه المعانى العذبة.. وجعلت منها نوراً

يكشف آفاقا من المعرفة.. وجعلت منها ألحانا مشجية سحرت القلوب.. وجعلت منها روضة يانعة عاشت فيها، وأخذت تدعو الناس لينعموا فى ظلالها.

ودوّى اسم رابعة فى الآفاق حتى وصل إلى أوربا، فتعجب علماؤها من أمر هذه السيدة التى لم تتخرج فى جامعات، ولم تحصل على إجازات، ولم تجلس فى حلقات العلم، ومع هذا فقد تقدمت بالآراء الفياضة باليقين، والأفكار الزاخرة بالخير، فأولوها اهتمامهم ولفتت أنظارهم وتسابقوا إلى دراسة شخصيتها وآرائها وحكمها.. فها هى ذى «مارجت سمث» قدمت لنا كتاباً عن (رابعة وزميلاتها المتصوفات فى الإسلام) نشرته فى كمبردج سنة ١٩٢٨، وها هو ذا ماسينيون يولى اهتمامه الزائد لدراسة شخصية رابعة ويقول عنها: (إنها تركت فى الإسلام أريجاً من الحب وعطراً من الولاية لن يتبخرا ولن يزولا)، وقال عنها نيكلسون فى دراساته عن الصوفية فى الإسلام: (لقد رسمت رابعة معالم الطريق، فاندفع الموكب الصوفى يسر فى سرعة خاطفة على نهجها فى الحب والمعرفة)، وقد بلغ ما ألف عن رابعة باللغة الفرنسية ما يزيد عن الخمسين كتاباً.

ولقد قدمت تاريخ رابعة فوق صفحات (صوت الإسلام) فى مقالات مسلسلة، فإذا ببعض القراء يتعجلوننى، ويطلبون أن أنشر مقالاتى دفعة واحدة.. وما أن أنتهيت من نشرها حتى ألح علىّ الكثيرون أن أجمع ما كتبت فى رسالة.. ونزولاً على إرادة إخوانى.. هأنذا أقدم لهم هذه

الرسالة الصغيرة، وقد أضفت إليها بعض ما لم أنشره فى (صوت الإسلام).

وإننى إذ أتقدم بهذه الرسالة، إنما أتقدم بها داعياً إلى أسمى العواطف الإنسانية وأرقها وأعذبها؛ داعياً إلى الحب.. الحب الإلهى.. حب الله، والحب فى الله.. فبهذا الحب ترهف المشاعر وتسمو الإحساسات، وتصفو حياة الناس، وترتبط القلوب بأنبل غاية، ويسود المحبة والوئام بين البشر؛ لأن الحب الإلهى يصبح طابع حياتهم.. فهو العقيدة، وهو الوسيلة، وهو الهدف الأعلى.

أسأل الله أن يمدنا بروح من عنده، وأن يشملنا بحبه ورحمته، وأن يرزقنا الشوق إليه ومحبته، حتى نكون ممن وصفهم فى قوله تعالى: ﴿**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ**﴾ [المائدة: ٥٤]

والسلام عليكم ورحمة الله.

محمد عطية خميس

المحامى

# ٣- الفتاة الرابعة

فى مطلع القرن الثانى الهجرى، كانت العراق تنيض بالحياة والفكر والقوة، وكانت البصرة من أعظم بلدانها شهرة، وأسطعها فى سماء العلم والمعرفة، فكانت قبلةً للعلماء ومجمعاً للمفكرين، حتى كان بها أكثر من أربعة آلاف يتكلمون فى المعرفة.. ثم فشا فيها ترف الأكاسرة، وتدفقت عليها أموال الفرس، فانسابت إليها موجة زاخرة من البذخ والترف والتنعم، فبرزت فوقها مئات من دور العزف والغناء واللهو الناعم والعربدة العنيفة.

وفى وسط هذا الجو العجيب، الذى اختلط فيه الإيمان بالترف والعلم باللهو، كانت هناك قافلة من مؤمنى الفرس والعرب والروم والزنوج، جمع بينهم الفقر والفاقة، واحتشدوا فى حى فى أطراف البصرة، وأقاموا فيه أكواخاً متناثرة، وكان من بين هذه الأكواخ كوخ صغير متواضع أطلق عليه البصريون **كوخ العابد** يقيم فيه رجل[١]

---

(١) ذكرت بعض الكتب أن أسمه ((إسماعيل)) وفى الواقع قد خلطت هذه الكتب بين ((رابعة بنت اسماعيل)) وبين ((رابعة العدوية)) فالأولى كانت تسمى ((رابعة)) أو رايعة ((يقلياء)) الشامية والثانية كانت تسمى ((رابعة العدوية)) أو البصرية أو القيسية.. الأولى تزوجت من أحمد بن أبى الحوارى، والثانية لم تتزوج وعاشت عذراء بتول، الأولى توفيت سنة تسع وعشرين ومائتين ودفنت برأس ((زينا)) ببيت المقدس، والثانية توفيت سنة مائة وثمانين. ودفنت بالبصرة على أرجح الأقوال – وكان من نتيجة هذا الخلط بين الاثنتين – أن نسب إلى ((رابعة العدوية)) أنها قابلت ذا النون المصرى، وقام بينهما جدل ومحاورات.. مع أن ذا النون المصرى لم يولد إلا سنة مائة ثمانين (أى عند وفاة رابعة) والمحاورات لم تحصل إلا بينه وبين التى عاصرته (أى رابعة الشامية).

مجرد من متاع الدنيا، ولكن روحه تفيض بالإيمان والرضا، لا يفتر لسانه عن تسبيح الله وذكره، ولا يهدأ عن عبادة ربه، حتى لقب بالعابد.

كان هذا الكوخ يستقبل في كل عام مولودة جميلة.. لقد استقبل ثلاث طفلات، وكانت الأم كلما وضعت طفلة تستقبلها بالدموع؛ لأنها لا ترى فيها إلا عبئاً عليها وعلى زوجها البائس.. أما الزوج نفسه، فكان يستقبل كل طفلة بالشكر والحمد والرضا.. إنه يرى في كل مولودة عنوانا لنعمة من نعم الله وفضله وخيره.

وللمرة الرابعة وفي ليلة حالكة واجمة فاجأ المخاض الزوجة المسكينة، ولم يكن بجوارها سوى هذا الزوج المسكين العابد يعللها بالفرج، ويهون عليها ما تلاقي من ألم، وهو يكابد أكثر مما تكابد من آلام وفكر وهم؛ فجيبه لا يحمل حتى درهماً واحداً، والمخاض يشتد على الزوجة، فتشتد عليه وطأة الآلام والأفكار، إنه يريد إن يلتمس العون والإسعاف من جيرته، ولكن إباءه وحياءه يصدانه دون ذلك، ولا سيما أنه كان قد عاهد الله ألا يطلب من مخلوق شيئاً.. وتضرعت إليه الزوجة البائسة المسكينة أن ينقذها مما تلاقي، وأن يسارع إلى إسعافها بما يعينها على الخلاص مما تقاسي من عسر المخاض.. لقد كانت ضراعة الزوجة وتوسلاتها لمما يذيب الصخور شفقة وعطفاً فما بالك بالرجل العابد اللين القلب؟

لقد استجاب لتوسل زوجته وذهب على حياء وخجل يطرق أبواب جيرته يلتمس العون، ولكن القلوب القاسية المتحجرة التي لم تفهم أن الحياة تقوم على التعاون والتكاتف والمساعدة أبت أن تفتح الأبواب

الموصدة فى وجهه، أو حتى ترد عليه بقول معروف. فما كان يسمع هذا المسكين إلا أصداء طرقاته للأبواب، ونداءه للجيران، مع أنه لم يكن يريد سوى زيت لمصباح بيته حتى يضيء السراج لزوجته، وقطعة من سمن تدهن بها الوالدة موضع السرة للوليد، وقطعة قماش يلف بها الطفل.

ورجع الزوج إلى زوجته صفر اليدين، كاسف البال، حائر الفكر فلما رأته على هذا الحال أخذت تبكى سوء حظهما فى الحياة، بينما أقبل هو على ربه يدعوه ويلتمس العون منه، فسبحانه وحده هو الرحيم المعين.

وجاء الله بالفرج، فانطلق صوت الوليد يبدد سكون الليل البهيم ويمزق ما يسود الكوخ من وجوم وانقباض، وأسرع الزوج يستقبل الوليد الجديد لعله يكون فى هذه المرة ولداً، ليشب رجلا يعاونه فى الحياة ولكن.. خاب أمله، فقد كان أمام طفلة رابعة!!

ولكنه كما قلت كان رجلاً عابداً متديناً، فلم يسفر لزوجته عما كان يساوره من شعور فى تلك اللحظة، بل قال لها:

بماذا نسمى هذه الطفلة؟ إنها طفلتنا الرابعة... فلنسمها رابعة بعددها بين أخواتها!!

وبات الأب الحزين مهموماً مفكراً، ثم قطع على نفسه حبل التفكير والهم، وشغل نفسه بالاتجاه إلى ربه يسبحه ويستغفره.. حتى غلبه النوم فرأى فى منامه رسول الله ﷺ يقول له: ((لا تحزن فهذه الوليدة سيدة جليلة، وإن سبعين من أمتى ليرجون شفاعتها)) ثم أمره ﷺ بالتوجه إلى عيسى زادان أمير البصرة، وأن يكتب له رقعة يخبره فيها أن النبى ﷺ

زاره فى المنام وأمره أن يذهب إليه وأن يقول له: ((إنك تصلى مائة ركعة كل ليلة، وفى كل ليلة جمعة أربعمائة، ولكنك فى الجمعة الأخيرة نسيت، ألا فلتدفع أربعمائة دينار لصاحب هذه الرقعة كفارة عن هذا النسيان)).

وفى الصباح كتب والد رابعة الرسالة التى أمر بكتابتها، وأرسلها عن طريق الحاجب إلى الأمير، فلما قرأها الأمير، أمر بإعطائه أربعمائة دينار فوراً وإحضاره إليه. ثم راجع الأمير نفسه فى الحال وقال: بل أنا أذهب إليه إجلالاً لمن أرسله، وسأتولى بنفسى العناية بابنته الجليلة القدر[١].

---

(١) عن تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار، وهو أوسع من أرّخ ((لرابعة)) والعطار فى تاريخه للمتصوفين ينسج على منوال خاص، هو الاهتمام بذكر الكرامات والعجائب، وما ذكره العطار من قصص وروايات قد اضطررنا إلى الأخذ به، لأنه إن كان مجرد أقاصيص شاعرية لا حقائق واقعية، فالتبعة عليه وحده، ثم إنه ليس هناك ما يمنع من حصولها، وبالتالى من تصديقها وإن لم تكن قد تأيدت بمصادر أخرى. بل بالعكس قد رأينا الذين يسرفون فى اتهام العطار – كالدكتور عبد الرحمن بدوى – يقولون إنهم لا يستطيعون رفض ما قاله العطار ((لأن الوثائق الجديدة التى تتكشف لنا يوماً بعد يوم تؤيد كثيراً من الروايات التى أوردها العطار، وكنا نظن أنه وحده الذى يأتى بها)).

# ٤- العابدة الصغيرة

نشأت **رابعة** فى بيت أبيها الرجل العابد الزاهد الفقير، وكانت فى حداثتها ذكية ذكاء لا يعهد فيمن همَ فى مثل سنها، فشبت وقد وعت تمام الوعى، ما يقاسى أبواها من فقر وحرمان، ومع هذا أبقيا علـــى تـــدينهما وتعففهما ورضائهما بما قسم الله.

لمست **رابعة** حال أبويها كما يلمسه الكبـــار الموفـــورو والعقـــل المكتملو الإحساس، فانطوت على نفسها وألجمتها بالصمت لا تطلب مـــن أبويها ما يطلب أمثالها من الصغار، وكانت إذا جلست تأكـــل لا تعجـــل بازدراد الطعام ولكنها تتأنى فى المضغ، ولا تتناول من الزاد إلا القليـــل ثم تنهض حامدة الله عز وجل، تماماً كما يفعل أبواها.

واقتدت **رابعة** بأبويها وأخواتها، فأخذت عنهم الـــدين والقناعـــة. كانت تسمع أباها يدعو الله فتنطبع فى ذاكرتها ألفاظ دعائه، وتشاركه فى ابتهاله.

كانت تستيقظ فى الغلس على قيام أبيها وإقباله علـــى الله، يرتـــل القرآن ويتضرع إلى ربه، فاستمالها ما كانت ترى وتسمع إلـــى العبـــادة والتقوى.

وتردد على سمعها من أبويها وأخواتها لفظـــا الحـــلال والحـــرام فأخذت تتحرى عن معنيهما، فتردد على لسانها ما يتـــردد علـــى ألســـنة المتقين والصالحين من آداب عالية وألفاظ مهذبة، فما ســـبت أحـــداً، ولا نالته بلفظ ناب، ولا آذته بما يجرح شعوره.

بهذه الآداب الكريمة وبهذه الروح الطاهرة وبهذا الإيمان السامى كانت تتحلى **رابعة** فى صغرها.. جلست عشية يوم مع أهلها إلى الطعام وأقبلوا عليه جميعا إلا هى.. فقد نظرت إلى أبيها وقالت له:

يا أبت، لست أجعلك فى حل من حرام تطعمنيه.

ونظر الأب إلى ابنته الصغيرة فى عمر الورد، وتعجب من إيمانها العميق الذى يعبق ولما تتفتح بعد، ثم سألها:

أرأيت يا **رابعة** إن لم نجد إلا حراماً.

فقالت **رابعة**: نصبر يا أبت فى الدنيا على الجوع خير من أن نصبر فى الآخرة على النار.

وعجب الأب لجواب ابنته.. هذا الجواب الذى لم يسمعه إلا فى مجالس الزاهدين وحلقات العابدين.. وعجب الأب أيضاً لهذا النضوج الفكرى والنضوج الروحى المبكرين.. كانت تقبل على حفظ القرآن وكلما حفظت سورة جلست إليه تتلوها بخشوع تام وإيمان عميق وفهم كامل فتتساقط دموعه على خديه، لا يدرى لهذا سبباً، أهى دموع الغبطة والفرح، أم دموع التأثر والخشوع؟

ولاحظ الأب على ابنته انطواءها على نفسها، ودأبها على الحزن والكآبة، ومثابرتها وصبرها على القيام والعبادة، شأنها فى هذا شأن الكبار، كبار الزاهدين والمتعبدين.

تركها ليلة وهى تقرأ القرآن وذهب إلى فراشه واستغرق فى نوم عميق، واستيقظ في الصباح فوجدها لا تزال كما تركها متجهة إلى القبلة ترتل وترفع يديها وتدعو وتبتهل، ثم تمسح وجهها بكفيها.

وظلت **رابعة** هكذا فى صغرها؛ ربت نفسها على الإيمان والعبادة والزهد وكأنما كانت تستعد لمجابهة ما يخفيه لها الزمن من تقلبات ومحن وشدائد، فقد مات أبوها وهى لم تزل صبية فى فجر الصبا، ولم تلبث أن لحقت به أمها، ففقدت حنان الأبوة وعطف الأمومة، وذاقت مرارة اليتم والشقاء والعدم... فيالك من مسكينة يا **رابعة!!**

# ٥- اليوم الموعود

أطبق الشقاء على **رابعة** وهى تتفتح للحياة وتمشى إلى ربيع العمر، فكيف تسير وحدها؟ من يحميها، ومن يرعاها، وليس لها أب ولا أم ولا حتى أخ من الذكور؟ ليس لها فى حياتها سوى أخواتها الثلاث وهن إناث مثلها!!

لقد قيل: إن أباها لم يدع لهن شيئاً سوى ذلك القارب[١] الذى كان يحمل الناس عليه من شاطئ إلى شاطئ على أمواه دجلة.. فحملت **رابعة** مكانه فى القارب طوال يومها.. حتى إذا أمسى عليها المساء رجعت إلى كوخها الموحش.. فقد أقفر من الأب الحنون، والأم العطوفة الرحمية.. فترتمى **رابعة** لتبكى وتبكى طوال الليل.. فنهارها شقاء، وليلها بكاء.

وعادت **رابعة** يوماً إلى الكوخ، وهناك وجدت صديقتها عبدة.. وبكت **رابعة** حتى أغرقتها الدموع.. فأخذت عبدة تهون عليها:

- مالك يا **رابعة**؟
- لست أدرى..إننى حزينة؟

---

(١) لم تذكر قصة عمل ((رابعة)) فى القارب فى الكتب التى تكلمت عنها إلا فى ((تحفة السالكين)). وقد جاء فيه: أن ((رابعة)) كانت تدعى (بالعدوية) لأنها كانت تعمل فى تعدية الناس بقاربها من شاطئ إلى آخر. وكانت تسمى (بالمعداوية) ثم اختصرت التسمية إلى العدوية. ولكن ابن خلكان فى ((وفيات الأعيان)) قد ذكر أنها كانت مولاة آل ((عتيك))، وآل عتيك بطن من بطون ((قيس)) ولذا سماها الجاحظ ((رابعة القيسية))، ومن آل عتيك بنو ((عدوة)) ولذا سميت ((بالعدوية))، ولكن ابن خلكان ليس بعمدة فى تاريخ المتصوفين.

وأخذت **رابعة** تبكى فى زفرات، وتجيب فى نحيب:

إنه لحزن غامض لا أدرى سببه ولا باعثه، إنهــا هواتــف فــى خاطرى تدفعنى إلى البكاء، وإنها لمناجاة فى سمعى لا أملــك معهــا إلا سفح هذه الدموع.

إنها كانت تحس أنها ليست لهذا العالم، وأنها لا تستطيع العيش إلا فى عوالم أخرى. لقد كانت شبه غارقة فى عالم من الأفكار تائهــة فــى بيداء من الهموم، وكان لا يخفف عنها سوى ألحانها الحزينة التى تنبــع من قلب حزين، والتى كانت ترددها وهى فى قاربها الصغير تمخر عباب الماء.

وفى يوم عادت إلى الكوخ وأسلمت أجفانها للنوم، وراحــت فــى سبات عميق.. ورأت فى منامها رؤيا أزعجتها كانت تتراءى لها فى كل ليلة وتراودها فى كل غفوة.

لقد رأت فيما يرى النائم نوراً ساطعاً مشرقاً أكثر ما يكون النــور سطوعاً وإشراقاً، ثم يتشعع هذا النور فيملأ الجو ويغمر الوجود ثم يتدفق هذا النور وينصب على جسدها فيغمره، ثم يتسلل إلــى قلبهــا وروحهــا وأعصابها، حتى إنها لترى كل جارحة من جوارحها تسبح فى النور، ثم تحس أعجب من هذا، أن النور يغسل جسدها وينصب فى كــل عصــب وقطرة من دمائها.

وتستيقظ **رابعة** لتضحك وتبكى.. وتتعقبها الرؤيا فى وضح النهار وهى تزاول عملها فى القارب.

وبينما هى فى القارب ذات يوم، وإنه ليوم ليس ككل الأيام، إنه يوم موعود.. بينما كانت فى القارب تسبح ببصرها فى الآفاق إذا بها تسمع لحنا ينصب فى سمعها:

**أحسن من قينة ومزمار فى غسق الليل نفحة القارى**

**يا حسنه والإله يسمعه بطيب صوت ودمعه جارى**

**وخده فى التراب منعفر وقلبه فى محبة البارى**

**يقول يا سيدى ويا سندى شغلنى عنك ثقل أوزارى**

وذهلت **رابعة** وأخذت تبحث عن مرسل النغم فلم تجده، وأخذتها نشوة اللحن، فاندفعت ترده فى إيمان عميق، حتى إذا وصلت إلى:

**يقول يا سيدى ويا سندى شغلنى عنك ثقل أوزارى**

شعرت كأن هذا البيت الأخير نور يسرى فى أوصالها ويطهرها تماماً كالنور الذى رأته فى أحلامها.

وعادت **رابعة** إلى البيت، والذهول يملك عليها كل عصب من أعصابها، والتمست النوم وأخذت تحتال عليه، ولكن ما السبيل إليه وقد رأت ما رأت وقد سمعت ما سمعت؟

ثم غفت غفوة، فرأت.. ويا عجب ما رأت.. رأت ملائكة من نور يطفن بفراشها، ويرددن اللحن العذب الذى سمعته:

**أحسن من قينة ومزمار فى غسق الليل نفحة القارى**

ثم هتف ملك كريم: يا **رابعة**، أما آن لك أن تعودى إلى ربك؟ يا **رابعة**، لقد اجتباك مولاك فأقبلى عليه وتفرغى له يغنيك عن الدنيا.

واستيقظت **رابعة** والنور يشع من قلبها، والنور يحيط بها، فألقت الدنيا وراء ظهرها، وأقبلت على ربها.. أقبلت على الآخرة.. أقبلت على التلاوة والعبادة فى جوف الليل.. ألم يقل اللحن الذى رددته أن نفحة القارئ فى غسق الليل خير وأحسن من ألحان قينة ومزمار؟ ألم يقل المولى عز وجل: **﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾** [الإسراء:٧٨] ؟ ألم يقل سبحانه وتعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾** [المزمل:١-٦] ؟

واتجهت **رابعة** إلى ربها.. كانت تقوم الليل لتناجيه.. كانت تبدد ظلمة ليلها بالنور الذى تدفق فى جسدها.. لقد قيل: إنها لم تستعمل مصباحاً قط، فإنها لم تكن فى حاجة إلى مصباح، فقد كان النور يشع من حولها.

لقد يعجب البعض من مثل هذا القول.. ولكن ألم يحدث مثل هذا فى عهد الرسول ﷺ؟ .. لقد روى البخارى بالسند المتصل عن أنس ﷺ أن رجلين خرجا من عند النبى ﷺ ومعهما مثل المصباحين يضيئان بين أيديهما، فلما افترقا صار مع كل منهما واحد حتى أتى أهله.

فلا جرم أن هذين الرجلين الصالحين والصاحبين الجليلين صدقت نياتهما، وتم إيمانهما، وقوى يقينهما فأكرمهما الله تعالى هذا الإكرام وجعل نور الإيمان الذى يملأ قلوبهما يضىء بين أيديهما فى غبش الظلام.. لا جرم أن الله تعالى أكرم الراوى فجعله يرى هذا النور ليزداد

إيمانا مع إيمانه[1] ولا جرم أن ما حدث لهـذين الصـحابيين الكـريمين يحدث لغيرهما كما حدث **لرابعة** - رضى الله عنها - فالله نور السموات والأرض.. يهدى بنوره من يشاء، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له مـن نور.

**(١) صيحة الحق للأستاذ أبو الوفا محمد درويش صـ٨٥ مطبعة أنصار السنة المحمدية طبعة ١٩٥٥.**

# ٦- فى قيود الرق

أنار الله قلب **رابعة**، وأرشدها إليه، وما عاد يغيب ذكره عنها فكانت تسبح فى نشوة حبه، وتهيم فى سماء التغنى بوصفه.

كانت فى قاربها طوال نهارها محلقة فى جو آخر كأنها لا تشعر بهؤلاء الذين يحيطون بها.. كانت تناجى ربها المحبوب.. كأنها تراه وكأنها ماثلة بين يديه، والناس فى القارب يظنون هذه الصغيرة غارقة فى حب بشرى، فقد كانوا لا يعرفون أهداف ما تقول إلا شخص واحد من الصالحين هو **معروف الكرخى** الذى أدرك أهداف هذه الألحان.

لقد عرفت **رابعة** سبيلها إلى الجنة، وشقت طريقها إلى الإيمان المجرد، ولكن حفت الجنة بالمكاره؛ تلك المكاره التى يبتلى الله بها عباده المؤمنين، حتى يعلم الصابرين منهم وغير الصابرين، وحتى يعلم الصادقين فى عبوديتهم وغير الصادقين.. ألم يقل الله عز وجل: **﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾** [العنكبوت:٣] ؟

إذا فسنة الابتلاء لابد أن تجرى على **رابعة** وكم من المؤمنين الصادقين، يحبون الابتلاء، ويستقبلون البلوى بالشكر والابتسام، لأنها تدفعهم إلى ربهم دفعا، يناجونه، ويلوذون به، ويتقربون إليه، ويظهر الواحد منهم بمظهر العبد الطائع مع سيده الحق.

حقا.. إن البلاء قد يكون قاسياً، ولكن فى بوتقة البلاء المتوهجة تصهر النفوس والقلوب، تماماً كالذهب كلما وضعته فى النار لا يزداد إلا صقلا ولمعانا وصفاء من الشوائب التى تعلق به.

وسنة الابتلاء جرت على **رابعة** ليمتحن الله إيمانها.. كم قذفها الزمن من عذاب إلى عذاب أشد؟ وكم دفعها من هوان إلى هوان أمرّ؟ ولكن هيهات أن ينال كل هذا من الإيمان المزين فى قلبها، المحبب إلى نفسها.

أجل.. لقد مات أبواها، وتركاها وأخواتها بالبصرة، وأخذ بعض أخواتها يعملن فى الدار، يغزلن أو ينسجن، بينما هى تكدح فى القارب طوال النهار.. ولقد رضيت بهذا الشقاء واحتملته فى سبيل لقمة العيش وهى لا تزال فى مقتبل العمر.

ولكن نيران الفتن كانت تشتعل فى البصرة بين عام وآخر. تارة يضرمها الخوارج، وتارة ينفخ فيها المتشيعون، وبالطبع لم يكن الأمويون بالذين يقفون مكتوفى الأيدى إزاء خصومهم. كل هذا فى الربع الأول من القرن الثانى الهجرى.

وكأنما أراد الله سبحانه أن يعاقب هؤلاء المنقسمين على أنفسهم المحاربين لبعضهم بعضاً فغضبت الطبيعة ذات سنة على هذه **البصرة** الزاهرة، فاجتاحها جفاف وقحط وصلا بها إلى حد المجاعة.. وكان الفقراء والمساكين من أول من أحرقتهم نيران هذا القحط.

وكانت **رابعة** وأخواتها فى مقدمة من عضتهم المجاعة بنابها، ولا أدرى، ولا كتب المناقب قد ذكرت لنا أتأثرت حركات القوارب بهذا

القحط؟ أم أن القحط قد أثر على الزراعة فكاد أن ينعدم البر والشعير وما إليهما فغلت الأسعار وارتفعت؟ أم أن إيراد أخواتها من الغزل والنسج قد انقطع تبعا لما أصاب البصرة من بلاء؟!

إن كل ما نعرفه عن **رابعة** وأخواتها أنهن تركن كوخهن الصغير وشردن فى الأرض يلتمسن كسيرات يقمن بها أصلابهن، ولكنهن تضورن جوعاً وتفرقن فى الأرض، وبقيت **رابعة** منذ ذلك اليوم وحيدة من أخواتها الإناث، ولم تلتق بإحداهن بعد ذلك كما قيل، وهكذا.. لا الجوع يرحمها، ولا لقمة ميسرة تسد رمقها، ولا قلب رءوم يحنو عليها ولا عاطفة كريمة تخفف عنها.

وكان الجوع والقحط شبكاً لمصائب أخرى انصبت على **رابعة** وأمثالها من الفقيرات البائسات.. فقد صاحب هذه المجاعة انتشار اللصوص وباعة الرقيق يقتنصون من شردهن الجوع على وجوههن فوقعت **رابعة**.. هذه الصغيرة اليتيمة المسكينة بين يدى لص من هؤلاء اللصوص المجرمين كان قد تتبعها، وحاولت الفرار منه فتعثرت فى جريها ووقعت على الأرض فلحقها وأمسك بها، ثم باعها لتاجر بثمن زهيد، لقد باعها بستة دراهم فقط[١]!!

---

(١) تذكرة الأولياء للعطار صـ٦٠.

# ٧- فى فضاء الحرية

وأخذ التاجر **رابعة** الأسيرة إلى بيته، وكان فظاً غليظ القلب، فقسا عليها وأرهقها، فذاقت ذلاً على ذل، وهواناً على هوان، وقليل من الناس من يستطيعون أن يهربوا من آلامهم وشقائهم ومنهم من لا يكون لهم شغل شاغل سوى التفكير فى هذه الآلام نفسها، فيزدادون شقاء على شقاء، وألماً على ألم، أما **رابعة** اليتيمة الصغيرة والتى نالها هوان الرق وأدمتها مخالب قسوة التاجر استطاعت أن تتخذ من هذه الآلام ما يصقل إيمانها وما يزيد قلبها طهراً وروحها نوراً.. كان نهارها إرهاقاً وعملا متواصلاً فإذا جاء الليل خلت إلى ربها وحدثته وناجته بلسان العبد إلى الرب.. تضرع وتبتهل وتناجى وتدعو وتسبح وتستغفر.. كانت تناجى ربها والدموع تنحدر من عينيها.. إنها لم تكن تسأله أن يخلصها مما تلاقى من شقاء، ولكنها كانت تريد أن تعرف شيئاً واحداً: هل هو راض عنها أم غير راض؟! كانت تقول: (( إلهى أنا يتيمة معذبة، أرسف فى قيود الرق، وسوف أتحمل كل ألم، وأصبرعليه، لكن عذاباً أشد من هذا العذاب يؤلم روحى، ويفكك أوصال الصبر فى نفسى، منشؤه ريب يدور فى خلدى: هل أنت راض عنى؟ تلك هى غايتى)) .

إذا.. فقد صعد إيمانها درجة من درجات الرقى الروحى.. لا تعبأ بما تلقى من تعب وإرهاق، لأنها تسبح فى أفق روحى فسيح، تلتمس فيه العفو والرضا من الله.. أرسلها سيدها يوماً إلى السوق، فخرجت تسلك أزقة البصرة، ولمحها ذئب بشرى من ذئاب السوء، فاعترض طريقها

ففرت منه فزعة مرتاعة فتعثرت وسقطت وانكسر ذراعها، ثم عادت إلى بيت صاحبها، وقامت إلى الصلاة ثم رفعت رأسها إلى السماء تناجي ربها: ((رباه.. قد انكسر ذراعي وأنا أعاني الألم واليتم، وسوف أتحمل كل شيء وأصبر عليه، فهل أنت راض عني يا سيدي؟. إلهي. هذا ما أتوق إلى معرفته))

كانت **رابعة** تستغرق في مناجاتها الحارة لله استغراقاً كاملاً، تتجه إليه وحده، ولا تتشغل بالتفكير في أي أمر آخر من أمور الدنيا.. وبينما كانت يوماً تَنْشُدُ الحب وطلب الرضا سمعت صوتاً يقول: لا تحزني ففي يوم الحساب يتطلع المقربون في السماء إليك، ويحسدونك على ما تكونين فيه![1].

لقد كان لهذا الصوت الذي سمعته **رابعة** أكبر الأثر في حياتها، فقد عرفت أنها تسير على الجادة، وأن الله يقبل مناجاتها.

وأقبلت **رابعة** كعادتها يوماً على عملها الشاق في بيت سيدها، فلما أدبر النهار وأقبل الليل عادت إلى ربها تناجيه وتدعوه، واستيقظ سيدها فسمع صوت مناجاة حارة.. فأخذ يتتبع الصوت إلى غرفة **رابعة** ثم نظر من خصاص الباب فرآها ساجدة تصلي وتقول: ((إلهي أنت تعلم أن قلبي يتمنى طاعتك، ونور عيني في خدمتك، ولو كان الأمر بيدي لما انقطعت لحظة عن مناجاتك، لكنك تركتني تحت رحمة هذا المخلوق القاسي من عبادك))

---

(١) تذكرة الأولياء صـ٦١.

وخلال دعائها وصلاتها شهد التاجر قنديلا فوق رأسها يحلق وهو بسلسلة غير معلق، وله ضياء يملأ البيت كله، فلما أبصر هذا النور العجيب فزع وظل ساهداً مفكراً حتى طلع النهار.. وهنا دعا التاجر **رابعة** وقال لها: أى **رابعة** وهبتك الحرية، فإن شئت بقيت هنا - ونحن جميعا فى خدمتك - وإن شئت رحلتِ أنَّى رغبت[١]!!

وما كادت تسمع **رابعة** هذه الكلمات حتى سارعت إلى النهوض وودعت الرجل، وخرجت إلى الطريق - تتنفس الصعداء - فقد تخلصت من قيود الرق وذلته.

---

(١) تذكرة الأولياء صـ٦١.

# ٨- أين ذهبت؟!

وانطلقت **رابعة** إلى فضاء الحرية، ولا يعرف على وجه الدقة والجزم إلى أين انطلقت، وماذا كان من أمرها بعد أن تركت دار التاجر.

وهنا يحلو للمغرضين والمتفلسفين أن يصبغوا حياتها في هذه الفترة بصبغة المرأة الماجنة، لا يهدفون من وراء هذا إلا إرضاء خيالهم بالأساطير الخلابة التي تستهوي عشاق الخيال والأساطير ممن لا ضمير ولا منطق لهم. وهؤلاء المتفلسفون ينسجون في أحكامهم على منوال المستشرقين الذين يعتبرون رمي الأعلام المسلمين بالظنون والشكوك ضرباً من ضروب العلم الحديث!!

إن كتب المناقب جميعها لم تذكر شيئاً عن حياة **رابعة** في هذه الفترة إلا أنها انطلقت في الصحراء ثم قصدت المساجد ومجالس الذكر.. أما فريد الدين العطار فقد قال: إن **رابعة** بعد تحررها من رقها احترفت مهنة العزف على الناي زماناً، ثم اعتزلت الناس بعد ذلك وابتنت لنفسها خلوة انقطعت فيها للعبادة[1].

وهذه الرواية الوحيدة التي قال بها فريد الدين العطار، لا يمكن الاعتماد عليها أو الاطمئنان إليها لعدم تأييدها بسند آخر تاريخي.. ويجوز أن هذا الخبر قد دس على العطار وأدخل عليه.. **فرابعة** التي كانت تتحمل آلام اليتم وعذاب الجوع وهوان الرق بمناجاة ربها: «أأنت راض عني أم غير راض؟» لا يمكن أن تهوى إلى هذا الحد، لا سيما مع

---

(١) تذكرة الأولياء صـ٦١.

ما عرفت به واشتهر عنها من تقوى وعلم وفقه وذكاء وعبادة وصبر على الشدائد.

ولكن يحلو لعشاق الأساطير، وأعداء التدين والتصوف، لا أن يرجحوا قول فريد الدين فحسب، بل يبنون عليه وقائع من نسج خيالهم وأكاذيبهم، فيصفون **رابعة** في هذه الفترة بأنها اندفعت في طريق الشهوات إلى مدى بعيد، وغرقت في الآثام إلى غور عميق، واقتاتت بقوت الحواس حتى الثمالة[١] مع أن أمانة التاريخ على الأقل توجب علينا ألا نلصقها بمثل هذه التهمة المخترعة إلا[٢] إن أبينا أن نقيم حكم المنطق على سيدة نشأت وشبت على التقوى وحب الله ثم عاشت حتى ماتت لا ترجو شيئاً سوى وجه الله ورضاء الله.

وقد بنى هؤلاء الظانون بالناس ظن السوء حكمهم على قولهم: وما كان يمكن **لرابعة** أن تتطرف في إيمانها وحبها لله إلا إذا كانت قد تطرفت من قبل في فجرها وحبها للدنيا.. من أعماق الشهوة العنيفة تنبثق الشرارة المقدسة للطهارة!!

ولا أدري من أين جاءت هذه القاعدة التي بنوا عليها حكمهم؟ أكل شخص متدين متطرف التدين، لابد أنه كان متطرفاً في الكفر والإلحاد؟! أكل شخص صالح أقبل على ربه كل الإقبال، لابد وأنه قد أسرف على نفسه في المعصية؟! إن في حياة الناس ألف دليل ودليل على أن هذه القاعدة لا تقف على ساق.

---

(١) شهيدة العشق الإلهي – عبد الرحمن بدوي صـ١٧ وما بعدها.

(٢) سقطت لفظة (إلا) من الأصل، وأثبتها للمعنى.اهـ. مصححه.

ويقولون أيضا: إن الدليل على انغماسها فى الشهوات أنها تابت والتوبة أصدق دليل على ارتكابها المعصية!!، ولو كانوا قد كلفوا أنفسهم عبء مراجعة نصوص الكتاب والحديث التى تحث على التوبة لعلموا أن التوبة والاستغفار مطلوبان شرعيان، فقد قال تعالى: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جميعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ**﴾ [النور:٣١]، وكان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: ((**سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لى إنك أنت التواب الرحيم**)) وكان ﷺ يقول: ((**إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم سبعين مرة**)) .

ويقولون أخيراً: إنها كانت تناجى ربها بقولها: إلهى. أنارت النجوم، ونامت العيون، وغلقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامى بين يديك، وما إلى ذلك من القول: فهى تذكر الإطار الغرامى الملائم، وهدوء الليل، وضياء النجوم، ونوم العيون، لأنها طالما ألفت هذا الإطار الشعرى الرائع فى أيام غرامها الآثم[1]!! وتناسى هؤلاء أن عبادة الرحمن محبوبة مطلوبة فى جوف الليل، وكان صحابة رسول الله ﷺ رهبان الليل وفرسان النهار، وأن القرآن حث على فضيلة قيام الليل: ﴿**تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ**﴾ [السجدة:١٦]، ﴿**وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا**﴾ [الفرقان:٦٤] فهل إذا استجابت **رابعة** إلى ربها وقالت له: (( إننى قمت الليل انصياعاً بما أمرت، وسهرت طوال سواده أناجيك وأعبدك وأسألك وأستغفرك رغم أن عبادك قد أغرقوا فى النوم)) فهل إذا ناجت **رابعة** ربها فى هذا الإطار الشعرى الرائع معناه أنها لابد

---

(١) صفحة ٢٥ من شهيدة العشق الإلهى.

وأنها استمدته من الإطار الذى ألفته فى أيام غرامها الآثم؟! سبحان الله!! بأى عقل يفكرون؟ وبأى منطق يهتدون؟ ومع هذا.. فماذا قال فريد الدين؟! لقد قال عنها: إنها كانت تعزف الناى. إذن فلم يقل إنها كانت تغنى وترقص وتتجر بالحواس!

ورغم أننى أستبعد ما قاله فريد الدين إلا أن هناك بعض الكتاب يؤيدونه ويرجحون قوله بأن **رابعة** كانت تستعمل الناى كأداة من أدوات العزف فى بعض ساحات الأذكار، وحلقات المتصوفين الذين يرددون من قلوبهم ألحانا مؤمنة سواء أخطأوا فى سلوك هذا السبيل أم أصابوا.. ولكن هذا القول مردود عليه، بأن آلات العزف والدف، لم تستعمل فى الأذكار إلا عند "البكناشية" الذين دخلوا مصر، ولم تدخل مثل هذه الآلات فى الذكر إلى البصرة حيث كانت **رابعة**. واستعمال هذه الآلات فى الأذكار إن هى إلا عادة جاءت فى عصور متأخرة عن عصر **رابعة** التى عاشت فى غضون القرن الثانى الهجرى.

إذن.. **فرابعة** لم تنطلق فى حياة آثمة، ولم يقم دليل واحد على هذا بالعكس إنها اندفعت فى ذات الطريق التى بدأتها ودفعت إليها قبل تحررها من أسر الرق.. وعندى أنها ما دامت قد انطلقت إلى الصحراء فقد غابت فى مكان انقطعت فيه لربها، أما لو كانت قد انقطعت إلى إثم لاشتهر هذا عنها ولعرفت به بين الناس فى وقتها وللازمت هذه الخطيئة تاريخها.

فاتقوا الله فى الأعراض، وكفوا ألسنتكم وأقلامكم عن السوء فأكثر ما يقذف بالناس فى النار حصائد ألسنتهم.

# ٩- قوّامة الليل

تحررت **رابعة** من ربقة الرق، وعاشت في حلقات المساجد ومجالس الوعظ والأذكار، ولكنها لم تعش في هذا الجو طويلاً، فلقد كانت هذه الفترة فترة عابرة في حياتها، فلعلها قد أحست أن عزفها الناي – إن صح هذا – وحضورها حلقات الأذكار بل وحتى قصد المساجد مما قد لا يرضى ربها، فصلاة المرأة في بيتها خير من صلاتها في المسجد.

تركت **رابعة** المساجد والحلقات وسارعت إلى حياة العزلة تسبح وتستغفر وتتأمل وتفكر في ملكوت الله، فلم تنشغل بشيء سوى ربها لقد سئلت يوماً:

– كيف بلغت هذه المرتبة العليا في الحياة الروحية؟

– بقولي دائماً: اللهم إني أعوذ بك من كل كائن يشغلني عنك، ومن كل حائل يحول بيني وبينك[١].

كان لا يشغلها سواه عز وجل، كانت تصلي العشاء ثم تقف للصلاة.. لقيام الليل وتقول:

قد نامت العيون، وغفل الغافلون، وبقيت **رابعة** الخاطئة بين يديك فلعلك تنظر إليها نظرة تمنعها بها عن النوم عن خدمتك.. ثم تهتف باكية:

وعزتك وجلالك. لا أنام عن خدمتك في ليل ولا نهار إلا غلبة حتى ألقاك.

---

(١) أسرار التوحيد لأبي سعيد بن أبي الخير صـ٣٤٥.

وكانت أحيانا إذا صلت العشاء تقوم على سطح لها، وتشد عليها درعها وخمارها، ثم تقول:

إلهى، أنارت النجوم، ونامت العيون، وغلقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامى بين يديك.

ثم تقبل على صلاتها حتى السحر، فإذا طلع الفجر قالت:

إلهى هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر، فليت شعرى أقبلت منى ليلتى فأهنأ، أم رددتها علىّ فأعزى؟ فوعزتك هذا دأبى ما أحييتنى وأعنتنى، وعزتك لوطردتنى عن بابك ما برحت عنه لمَا وقع فى قلبى من محبتك[١].

ولقد أوفت رابعة بعهدها لله، فما زال شأنها كذلك مع ربها إلى أن ماتت.. ما برحت تتهجد له طوال لياليها حتى يسفر النهار.. فقد روت صديقتها عبدة[٢]:

كانت رابعة تصلى الليل كله، فإذا طلع الفجر هجعت فى مصلاها هجعة خفيفة حتى يسفر الفجر، فكنت أسمعها تقول إذا وثبت من مرقدها ذلك وهى فزعة: يا نفس! كم تنامين، وإلى كم لا تقومين! يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا بصرخة يوم النشور، فكان هذا دأبها دهرها حتى ماتت[٣]

---

(١) الروض الفائق صـ١١٧.

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزى جـ٤، صـ٥٨ك، ووفيات الأعيان لابن خلكان جـ١، صـ٢٥٦. والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى جـ١،صـ٢٣٠.

(٣) صفة الصفوة صـ٥٨ب، طبقات الأولياء صـ١٠٤.

ولقد أصيبت فى حياتها بعلة منعتها عن القيام.. فقد روى مسمع ابن عاصم[١]: قالت لى **رابعة:** اعتللت علة قطعتنى عن التهجد وقيام الليل فمكثت أياماً أقرأ جزئى إذا ارتفع النهار لما يذكر فيه أنه يعدل قيام الليل[٢]. قالت: ثم رزقنى الله عز وجل العافية، فاعتادتنى فترة فى عقب العلة، وكنت قد سكنت إلى قراءة جزئى بالنهار فانقطع عنى قيام الليل قالت: فبينا أنا ذات ليلة راقدة رأيت فى منامى كأنى رفعت إلى روضة خضراء ذات قصور ونبت حسن، فبينا أنا أجول فيها أتعجب من حسنها إذا أنا بطائر أخضر وجارية تطارده كأنها تريد أخذه، قالت: فشغلنى حسنها عن حسنه، فقلت: ما تريدين منه؟ دعيه فوالله ما رأيت طائراً قط أحسن منه. قالت: بلى. ثم أخذت بيدى فدارت بى فى تلك الروضة حتى انتهت بى إلى باب القصر، فاستفتحت ففتح لها ثم قالت: افتحوا لى بيت لمقة، قالت: ففتح لها باب شاع منه شعاع استنار من ضوء نوره ما بين يدىّ وما خلفى، وقالت لى: ادخلى.. فدخلت إلى بيت يحار فيه البصر تلألؤاً وحسناً ما أعرف له فى الدنيا شبيهاً أشبه به. فبينا نحن نجول فيه إذ رفع لنا باب ينفذ منه إلى بستان، فأهوت نحوه وأنا معها، فتلقانا فيه وصفاء كأن وجوههم اللؤلؤ، بأيديهم المجامر، فقالت لهم: أين تريدون؟ قالوا: نريد فلاناً، قتل فى البحر شهيداً قالت: أفلا تجمروا هذه المرأة؟

---

(١) عن "مصارع العشاق"، لأبى محمد جعفر بن أحمد بن حسين السراج القارى صـ١٢٦.

(٢) تقصد ما رواه عمر بن الخطاب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((من نام عن حزبه أو عن شيء منه بالليل فقرأه بين صلاة الفجر والظهر كتب له كأنما قرأه بالليل)).

قالوا: قد كان لها فى ذلك حظ فتركته قالت: فأرسلتُ يدها من يدى، ثـم أقبلت علىّ فقالت:

**صلاتك نور والعباد رقـود ونومك ضد للصـلاة عنيـد**

**وعمرك غنم إن عقلت ومهلة يسير ويفنـى دائمـاً ويبيـد**

ثم غابت من بين عينى، واستيقظت من تبدى الفجر، فـوالله مـا ذكرتها فتوهمتها إلا طاش عقلى وأنكرت نفسى. قال ابن عاصم: إنها بعد أن قصت عليه هذه الرؤيا سقطت **رابعة** مغشياً عليها.

هذا هو السلوك الذى يرفع الدرجات ويكفر عن السيئات ويصـقل القلوب ويطهر النفوس ويرفع من مقام الناس فى الـدنيا والآخـرة.. إن المتهجدين من أحسن الناس وجوهاً؛ لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نـوراً من نوره، وقد قال ﷺ فى ابن عمر – رضى الله عنهما: ((**نعم الرجل ابن عمر، لو كان يصلى بالليل**)) .

وإن جمال قيام الليل وروعته تتجليان فى لذة المناجـاة، مناجـاة العبد المحب للرب الحبيب.. المناجاة التى تترجم ألحان الحب الصادر من القلب، المناجاة التى تعبر عن الشوق الفائض فى صدر المحب، المناجاة التى تصور الإيمان الموحد المجرد عن إشراك آخر معه.. وكانت مناجاة رابعة أصدق تصوير لإيمانها وتوحيدها وحبها. كان مما تقول: إلهى مـا أصغيت إلى صوت حيوان، ولا حفيف شجر، ولا خرير ماء، ولا تـرنم طائر، ولا تنعم ظل، ولا دوى ريح، ولا قعقعة رعد إلا وجدتها شـاهدة بوحدانيتك، دالة على أنه ليس كمثلك شئ.

وما أروعها حين كانت تناجيه وهى ساجدة:

سيدى بك تقرب المتقربون فى الخلوات، ولعظمتك سبحت الحيتان فى البحار الزاخرات، ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات. أنت الذى سجد لك سواد الليل، وضوء النهار، والفلك الدوار، والبحر الزخار والقمر النوار، والنجم الزهار، وكل شيء عندك بمقدار، لأنك الله العلى القهار[1].

إن **رابعة** ما كانت تعبأ بشيء فى الدنيا.. إنها كانت لا تعرف إلا الله. أحبته وتفانت فى العمل على إرضائه، وظل حبها لله يلازمها فى حياتها.. فى يقظتها ونومها.. فى قيامها وجلوسها.. إنها لا تفكر فى سواه ولا تنشد إلا رضاءه.. مكثت أربعين سنة لا ترفع رأسها إلى السماء حياء من الله، وكانت تقول: ما سمعت الأذان إلا ذكرت منادى يوم الجمعة، وما رأيت الثلج إلا ذكرت تطاير الصحف، وما رأيت الجراد إلا ذكرت الحشر[2].

إنها كانت تربط عقلها وتفكيرها بالآخرة وحدها حيث تلقى الله.. فالمؤذن هو منادى يوم القيامة، والثلج هو تطاير الصحف، والجراد هو الناس يوم الحشر، وكانت تقوم الليل تناجى ربها، وتتوسل إليه، وتقبل عليه، تستغفر وتتوب، وتحزن وتبكى، مؤملة رحمته، زاجرة نفسها.

وزجر النفس – أى تهذيبها – يحتاج إلى زواجر ودروس، فعمر ﷺ، كان يلبس خاتماً منقوشاً عليه: كفى بالموت واعظاً يا عمر.. أما

---

(١) إتحاف السادة المتقين فى شرح إحياء علوم الدين، للزبيدى جـ٩، صـ٦٨٨.

(٢) طبقات الأولياء صـ١٠٤، رقم ٤١٦٤ خط بالظاهرية بدمشق.

**رابعـــة** فكانت أشد فى زجر النفس، فلقد اتخذت مشجب قصب، طوله من الأرض قدر ذراعين وعليه أكفانها.

كانت أكفانها أمام عينيها دائماً كى تتأملها وتتعظ بكل المعانى التى تتضمنها فكرتها، وكانت إذا صلت اغرورقت عيناها بالدموع. حتى إنهم كانوا يجدون محل سجودها كالماء المستنقع من كثرة البكاء[١].

وهكذا بدأت **رابعة** حياتها الروحية بعد عزلتها بالتهجد وقيام الليل وذكر الموت، فعرفت قيمة الدنيا عند الله، إنها لا تساوى عنـــده جنـــاح بعوضة، ولو كانت تساوى عنده شيئاً ما سقى منها كافراً شربة ماء، وما قيمة دنيا نعب منها عباً، ثم تفنى وتنتهى فى تراب؟ قال ﷺ: «**والله لـــو علمتم من الله ما أعلم لخرجتم إلى المقابر تجأرون**» ، وقال عليه الصلاة والسلام ذات يوم لأبى هريرة: «**يا أبا هريرة، ألا أريك الـــدنيا جميعهـــا بما فيها. فقال: بلى يا رسول الله**. يقول أبو هريرة: فأخذ بيدى، وأتـــى بى وادياً من أودية المدينة، فإذا مزبلة فيها رءوس أناس وعذرات وخرق وعظام، **ثم قال: يا أبا هريرة. هذه الرءوس كانت تحـــرص كحرصـــكم، وتأمل كأملكم، ثم هى اليوم عظام بلا جلد، ثم هى صائرة رماداً، وهـــذه العذرات هى ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها، ثـــم قـــذفوها من بطونهم فأصبحت والناس يتحامونها، وهذه الخرق الباليـــة كانـــت رياشهم ولباسهم، فأصبحت والرياح تصفقها وهذه العظام عظام دوابهم**

(١) طبقات الأولياء لعبد الرءوف المناوى (مخطوط) صـ١٠٥ب، وشـــهيدة العشـــق الإلهـــى صـ٣٣،١٣٨.

**التى كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد، فمن كان باكيـــاً علـــى الـــدنيا فليبك**)).

ولقد بكت **رابعة** على الدنيا وزهدت فيها ووطئتها بأقدامها، ثـــم أخـــذت تناجى ربها وهى تبكى:

**وزادى قليل مـــا أراه مبلغـــى  أللزاد أبكى أم لطـــول مســـافتى**

**أتحرقنى بالنار يا غاية المنـــى  فأين رجائى فيك أين مخافتى**[١]

---

(١) صفة الصفوة جـ٤، صـ٢٠٢ب، روض الرياحين صـ١٠٢.

# ١٠- العذراء البتول

وانتهجت **رابعة** بزهدها وعزلتها نهجاً جديداً في حياتها.. فأعرضت عن الزواج، وانقطعت للتعبد فقط، بالرغم من أنها كانت باهرة الجمال ساحرة الفتنة.

لقد منحت **رابعة** ذكاء متقداً، وفهماً كاملاً لخفايا ودقائق الدين في الفقه والحديث والتفسير، وهى تعلم أن الزواج من سنن الإسلام، وأنه نصف الدين، وأنه لا رهبانية فى شريعة محمد بن عبد الله ﷺ، فما الذى جعلها – وهى المتدينة المتفقهة – تفضل حياة العزوبة عن الزواج؟!

لقد أعرض الكثيرون من المتصوفين عن الزواج، وعاشوا مترهبين زاهدين.. كانوا يمضون الساعات الطوال فى عبادة دائمة وبكاء مستمر، حتى أطلق عليهم (البكاءون المتعبدون) ومن أشهرهم: رباح بن عمرو القيسى، وسفيان الثورى، ومالك بن دينار. وأعتقد أن اتجاه بعض المتصوفين الأوائل هذا الاتجاه لم يكن القصد منه إقامة مذهب إسلامى جديد؛ لأن هذا الاتجاه كان يخالف سنة الرسول ﷺ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يأخذ بأسباب الحياة الطيبة، وحبب إليه من زينة الدنيا الطيب والنساء، والإسلام دين الفطرة والسير فى ركب الحياة وجنى طيباتها بعيداً عن حدود الحرام بشرط عدم التهافت على الدنيا تهافتا يشغل عن الله، إنما قد يرجع اتجاه بعض المتصوفين هذه الوجهة إلى عوامل نفسية أو روحية خاصة بهم ولا سيما أنهم كانوا من سادة الفقه والعلم.

إن المتصوفين يصورون جانباً واحداً من جوانــب العظمــة فــي الدين، ولم يكن سلوكهم فى الحياة مسلكاً معيناً إلا بقصد تجسيم وإبــراز هذا الجانب من جوانب العظمة، ألا وهو الزهد فــى الــدنيا، والتوجــه المطلق إلى الله.. إنهم تخصصوا فى ناحية هامــة مــن نــواحى الــدين فوهبوها كل ما ملكوا من قوة وقلب وفكر ووقت، شأنهم فى هذا، شــأن الذين تخصصوا فى الفقه، وشأن الذين تخصصوا فى الجهاد والحــرب.. لقد تخصصوا فى تطهير القلوب والأرواح والسمو بها نحو الحب الإلهى.

وحينما أعرض حياة **رابعة** أو حياة أحد المتصوفين فلا أقصد من ذلك أن يحيا كل قارئ حياة **رابعة** فى عزلة وعبادة، وإلا فتصور معــى أمة بأسرها تحيا حياة العزلة والنسك.. أو تصور معى أمــة بأســرها لا عمل لها فى الحياة سوى الاشتغال بالفقه والاجتهاد، أو تصور معى أمــة بأسرها لا تصلح إلا للقتال والحرب، ماذا تكون النتيجة؟ تكــون النتيجــة طبعاً هى دفع مثل هذه الأمة نحو الفناء السريع والهلاك العاجل والهاوية العميقة.

إذن.. ما الذى يجب أن يفعله الواحد منا حينما يطالع تاريخ هؤلاء القادة والسادة فى العلم والفقه والتصوف والجهاد؟ يجب أن نفعــل كمــا تفعل النحلة، تمتص رحيق هذه الورود الجميلة المختلفة فى عطرها يجب أن نتذوق طعم كل ثمرة من ثمار حياتهم ونخرج بالمعنى العظــيم الــذى أفنوا حياتهم لإبرازه.

ونعود فنتساءل: ما الذى جعل **رابعة** تعرض عن الزواج؟

لعلها تأثرت بما لاقت على أيدى الرجال ففقدت الثقة فيهم فهى لم تنس ذلك اللص الذى خطفها وأسرها وباعها، وهى لم تنس من اشتراها وأرهقها.. وهى لم تنس رجل السوء الذى اعترض طريقها حتى سقطت على الأرض.

ولعلها رأت الناس يسخرون الدنيا لأنفسهم، فآثرت العزلة والهدوء؟

ولعلها تأثرت بما سمعت عن حياة الزاهدين والمتصوفين، فلمس ما سمعته ما كان عندها من استعداد روحى شب معها منذ الصغر.

ومهما كانت علة إعراض **رابعة** عن الزواج فمما لاشك فيه أن سبب هذا الإعراض يرجع إلى عوامل معنوية وروحية خاصة بها، وهذا لا ينال من إيمانها وعظمة تاريخها، فإن كثيرين من الصحابة لم يتزوجوا، وتجرى على الصوفى كثيراً أعمال لا يعلمها إلا الحق، فهو يكون دائماً مع الحق على حال لا يعلمها إلا هو.. وعلى ضوء هذه الحقيقة قد نعلل أيضاً سبب إعراض **رابعة** عن الزواج.

روى صاحب "تذكرة الأولياء" أن الحسن البصرى سألها:

- هل تتزوجين؟

- الزواج ضرورى لمن له الخيار، أما أنا فلا خيار لى فى نفسى إنى لربى وفى ظل أوامره ولا قيمة لشخصى.

- فكيف بلغت هذه الدرجة؟

- بفنائى بالكلية.

- أنت تعرفين لماذا، أما نحن فلا يوجد لنا هذا.

وإذا صرفنا النظر عن الخطأ التاريخى فى هـذه القصـة، إذ أن رابعة لم تكن فى عصر الحسن البصرى[١]؛ وقد تكون هذه المحاورة قـد تمت بين سفيان الثورى ورابعة إلا أنها تشف عن سبب إعراضها عـن الزواج، إذ كانت على حال مع ربها يتعذر عليها معه أن تستجيب لنـداء الزواج.

إن عقلها لم يكن يتسع إلا لله، وكان قلبها لا يتسـع إلا لحـب الله فكانت ترى أنها لا تستطيع أن توفق بين الزواج وبين هذا الحب الإلهـى فاختارت حبها لله، ونذرت نفسها له وحده حتى لا يشغلها عنه شىء.. لا زوج، ولا مال، ولا ولد.

خطبها عبد الواحد بن زيد – مع علو شأنه – وشـفع لـه إليهـا إخوانه، بعد أن حجبته أياماً، فلما دخل عليها قالت له: يا شهوانى اطلـب شهوانية مثلك[٢].

وأراد محمد بن سليمان الهاشمى أن يتزوج امرأة صالحة، وكانت غلة ملكه كل يوم ثمانين ألف درهم، فأجمع كبراء أهل البصـرة علـى رابعة، فكتب إليها: أما بعد، فإن الله ملكنى كل يوم ثمانين ألـف درهـم، وأنا أصيرها ومثلها ومثلها إليك، فأجيبينى إلى ما سألت..

---

(١) ولد الحسن البصرى سنة ٢١هـ، وتوفى سنة ١١٠ هـ، بينمـا توفيـت رابعـة سـنة ١٨٠هـ، أو ١٨٥هـ.

(٢) مجموع نصوص لم تنشر خاصة بالتصوف الإسلامى.. "ماسـينيون" و "إتحـاف السـادة المتقين" للمرتضى الزبيدى جـ٩، صـ٧٥٦.

فكتبت إليه: أما بعد، فإن الزهد فى الدنيا راحة البدن، والرغبة فيها تورث الهم والحزن، فهيئ أمرك، وقدم لمعادك، وكن وصى نفسك ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقتسموا تركتك، وصم الدهر، واجعل فطرك الموت. وأما أنا فلو خولنى الله أمثال ما خولك وأضعافه ما سرنى أن أشتغل عن ذكر الله طرفة عين. والسلام[١].

وقد سألها سائل يوماً:

– لماذا لا تتزوجين؟

أجابت:

– هناك ثلاثة أشياء – هى سبب الهم عندى – فإذا وجد من يخلصنى منها تزوجت.

وما هى هذه الأشياء!؟

– أولا: إذا مت أستطيع أن أتقدم بإيمانى طاهراً.

ثانياً: إذا كنت سأعطى كتابى بيمينى يوم القيامة.

ثالثاً: إذا جاء يوم البعث، وأخذ أصحاب الميمنة إلى الجنة وأصحاب المشأمة إلى السعير، فمن أى الفريقين سأكون؟

– لا أعرف شيئاً عما سألته، إنما علمه عند ربى.

إذا كان الأمر كذلك وأنا فى قلق من هذه الأشياء، فكيف أحتاج إلى الزواج وأتفرغ له[٢]؟

---

(١) طبقات الأولياء للمناوى صـ١٠٤، وشهيدة العشق الإلهى صـ١٣٥.

(٢) تذكرة الأولياء صـ٦٦.

لقد شغل قلبها بأمور لا تستطيع معها التفكير في الزواج، أو التفرغ له.. رأت يوماً رباح بن عمرو القيسى يقبل طفلاً من أهله في رفق وحنان، فهالها – وهىَ المرأة التى فطرت فيها عاطفة الأمومة – أن ترى هذا الزاهد على هذه الحال، فقالت له:

– ما كنت أحسب أن فى قلبك موضعاً فارغاً لمحبة غيره تبارك اسمه!!

فلما سمع رباح هذا التقريع أغمى عليه، فلما أفاق من إغمائه جعل يمسح عرقه ويقول: رحمة منه تعالى بالإنسان ألقاها فى القلوب لتعطف على الأطفال(١).

أما **رابعة** فكان قلبها كله لله وحده، لا فراغ فيه لمحبة غيره تبارك اسمه، فكانت تردد نشيدها الخالد:

**راحتى يا إخوتى فى خلوتى وحبيبى دائماً فى حضرتى**

**لم أجد لى عن هواه عوضاً وهواه فى البرايا محنتى**

**حيثما كنت أشاهد حسنه فهو محرابى إليه قبلتى**

**إن أمت وجداً وما ثم رضاً وا عنائى فى الورى وا شقوتى**

**يا طيب القلب يا كل المنى جد بوصل منك يشفى مهجتى**

**يا سرورى وحياتى دائماً نشأتى منك وأيضاً نشوتى**

**قد هجرت الخلق جميعاً أرتجى منك وصلا فهل أقضى أمنيتى(٢)**

---

(١) "إتحاف السادة المتقين" الزبيدى جـ٩، صـ٦٨٨، و"مصارع العشاق" صـ١٨١.

(٢) "الروض الفائق فى المواعظ والرقائق" للشيخ الحريفيش صـ١٨٨.

لقد هجرت الخلق جميعاً فمالها والرجال؟ وما لها والزواج؟! أنأخذ عليها بعد هذا إعراضها عن الزواج، وهى تعلم أنها بزواجها إما تظلم زوجها وتظلم أبناءها – لأنها لا تستطيع أن تتفرغ لهم بل وليس فى قلبها فراغ للتفكير فيهم – وإما تظلم نفسها بحرمانها من سعادة الحب الإلهى.. إنها أبت أن تظلم غيرها كما أبت أن تظلم نفسها؛ لأن الظلم ظلمات تحجب بين المرء وبين الله نور السموات والأرض.

# ١١- المؤدِّبة الزاهدة

إن **رابعة** لم تزهد فى الزواج إلا لأنها زهدت الحياة نفسها ولزهدها فى الحياة قصة رواها لنا صاحب "تذكرة الأولياء".

يحكى أنها صامت سبع ليال وسبعة أيام متوالية دون أن تتناول شيئاً أو تنام منقطعة إلى الصلاة، وفى الليلة الثامنة قالت لها نفسها الأمارة بالسوء وهى تنوح: يا **رابعة** إلى متى تعذبيننى هكذا دونما هوادة؟ وخلال هذا الحديث النفسى سمعت صوت قرع على الباب ففتحت **رابعة** فكان رجل أحضر لها طعاماً فى كأس، فأخذته **رابعة** ووضعته فى البيت فلما تركته لإشعال المصباح أتى قط وأكل كل ما فى الكأس فلما عادت **رابعة** ورأت ما حدث قالت: سأبحث عن ماء أفطر به، فلما ذهبت للحصول على ماء انطفأ المصباح، فعادت ورفعت الجرة للشرب، لكنها سقطت من يديها وانكسرت. فزفرت **رابعة** زفرة كاد البيت أن يحترق منها وصرخت: إلهى! ماذا أردت بهذه المسكينة. فسمعت صوتاً يقول: يا **رابعة**، إذا شئت أعطيناك الدنيا بأسرها، لكن يجب من أجل هذا أن ننزع الحب الذى فى قلبك لنا؛ لأن حبنا وحب الدنيا لا يجمعان معاً، فقالت **رابعة**: لما سمعت أنى أخاطب على هذا النحو، نزعت من قلبى كل ما تعلق بأمور الدنيا، وصرفت نظرى عن كل الدنيويات، وهاأناذا قد أمضيت ثلاثين عاماً لم أصل فيها دون أن أقول هذه الصلاة لعلها تكون اخر صلواتى، ولم أمل من تكرار هذا القول: إلهى أغرقنى فى حبك حتى لا يشغلنى شىء عنك.

حررت **رابعة** نفسها من عبودية الدنيا، وحلقت بأجنحة الورع الصادق فى سماء المعرفة، فراح لسانها يجرى بالحكم الصائبة والعظات المبكية والتوجيهات العميقة، حتى إن كبار المتصوفين كانوا يسمونها "المؤدبة".

لقد علمت الناس حقيقة هذه الدنيا.. إنها لا تساوى شيئاً – لأنه لا قيمة لها – ففيم الإقبال عليها، والتطاحن فيها؟!

ولكن كيف أن الدنيا لا قيمة لها؟ ما هى الحجة الدامغة؟ وما هو الدليل الناطق؟! لقد قالت – رضى الله عنها:

لو كانت الدنيا لرجل ما كان بها غنياً.

فقيل لها: وكيف؟!

قالت: لأنها تفنى(١).

أجل.. ما قيمة الدنيا عند رجل سينتهى هو إلى زوال فيفقد كل ما يملك ولن ينفعه ما ملك؟ وما قيمة هذه الدنيا كلها وهى نفسها إلى زوال؟! ستفنى، وسيفنى كل ما عليها: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

هذى هى حقيقة الدنيا، لا خلاف فيها، تنتهى وتفنى وتزول. ويشترك الجميع فى هذه النهاية الغنى والفقير، والقوى والضعيف والمتعلم والجاهل، والعربى والأعجمى.. فما الدنيا إلا كسوق قامت ثم انفضت.

---

(١) طبقات الأولياء صـ١٠٤.

ولا تقف **رابعة** عند تقرير هذه الحقيقة فحسب، وهى أن الدنيا لا قيمة لها، ولكنها تقرر أيضاً أن السلامة فى ترك ما فى الدنيا.

قال جعفر بن سليمان[١]: أخذ بيدى سفيان الثورى، وقال:

- مر بنا إلى المؤدبة التى لا أجد من أستريح إليه إذ فارقتها. فلما دخلنا عليها رفع سفيان يديه وقال:

- اللهم إنى أسألك السلامة.. فما كان من **رابعة** حين سمعت هذا الدعاء إلا أن بكت، وتعجب سفيان من بكائها فسألها:

- ما يبكيك يا **رابعة**؟

- أنتَ السبب.. لقد عرضتنى للبكاء.. أما علمت أن السلامة من الدنيا ترك ما فيها؟ فكيف وأنت متطلخ بها؟

فقال سفيان: واحزناه.

فقالت **رابعة**: لا تكذب، قل: واقلة حزناه! لو كنت محزوناً ما هنأك العيش يا سفيان - إنما أنت أيام معدودة، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل، وأنت تعلم فاعمل[٢].

لقد أرادت أن ترشد إلى طريق السلامة، فالسلامة لا تتحقق بالدعاء فحسب، ولكنها تتحقق بالأخذ بأسبابها، وأهمها: الإعراض عن الدنيا.. وما كانت فتنة المسلمين وذلتهم إلا من حبهم للدنيا. فقد قال ﷺ: **((يوشك الأمم أن تتداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال**

---

(١) "صفة الصفوة" لابن الجوزى. جـ٤، صـ٥٨ب. مخطوط الظاهرية بدمشق تاريخ ٦٧.

(٢) "سير السالكات لمؤمنات الخيرات" لأبى بكر الحصنى، و"طبقات الأولياء" للمناوى، و"نفحات الأنس من حضرات القدس" لعبد الرحمن الجامى.

قائل: من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: لا، بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم، وليقذفن فى قلوبكم الوهن؛ قيل: وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهة الموت)).

فالسلامة إذن فى نزع حب الدنيا من القلوب.. السلامة لا يمكن أن تتحقق بحب دنيا زائفة كالسراب الخادع، تكابد القوافل حتى تصل إليه فلا تجده شيئاً، وكالماء الملح كلما شرب الإنسان منه ازداد ظمأ وعطشاً، وقد أخبرنا رسول الله ﷺ عن مصير أحباب الدنيا يوم القيامة فقال: ((ليجيئن أقوام يوم القيامة أعمالهم كجبال تهامة، فيؤمر بهم إلى النار. قالوا يا رسول الله: مصلين؟ قال: نعم، كانوا يصلون ويصومون ويأخذون هنة من الليل – أى: يتعبدون فى الليل – فإذا عرض لهم شىء من الدنيا وثبوا عليه)).

إذن.. ما دامت الدنيا كذلك فيجب الإعراض عنها، ولترويض النفس على هذا الإعراض يجب أن نسلك فى الحياة مسلكاً خاصاً أوضحته لنا رابعة وهو الحزن، وانشغال المرء بمآله فى آخرته.

ولهذا كان لها رأى فى الحزن.. ليس الحزن أن يكون المرء حزيناً، ولكن الحزن عندها شىء آخر أوضحته فى قولها:

لا يكون حزنى أن أكون محزونة، بل حزنى أنى ما كنت محزونة[١].

والحزين كثيراً ما يذرف الدموع، وهكذا كان شأن السلف الصالح فعلى – كرم الله وجهه – كان يقف فى المحراب للصلاة فيبكى ويقول:

يا دنيا غرّى غيرى، ألى تعرضت؟

ورابعة الزاهدة الحزينة كانت كثيرة البكاء، حتى كان موضع سجودها كهيئة المستنقع من دموعها كما ذكر ابن منظور. ولقد دخل عليها يوماً عبد الله بن عيسى فرأى على وجهها النور وهى يومئذ سيدة عجوز.. فقرأ رجل عندها آية فيها ذكر النار فسقطت **رابعة**.. ويقول ابن عيسى:

وسمعت وقع دموعها على البارية مثل الوكف وصاحت فقمنا وخرجنا[٢].

وروى المناوى أنها كانت شديدة الخوف جداً من الله، حتى إنها كانت إذا سمعت ذكر النار أغمى عليها[٣].

هذا هو إذن طريق السلوك فى الحياة الدنيا.. يجب أن يكون الإنسان حزيناً بها، لا يلهو كثيراً ولا يضحك، فكثرة الضحك تميت القلب.. ألم يقل رسول الله ﷺ: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**»؟

---

(١) "نفحات الأنس من حضرة القدس" ورقة ٢٣٦(أ)، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس برقم ١٣٧٠ عربى.

(٢) سير السالكات المؤمنات"، ورقة ٢٦ (أ) مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٢٠٤٢.

(٣) طبقات الصوفية" للمناوى، ورقة ١٠٤ (ب).

والسجين لا يكون هانئ العيش ولا يكون إلا حزينا حتـــى ينطلـــق مـــن السجن كما ينطلق الأسد من العرين.. فحينئذ – وحينئذ فقــط – يشـــعر بالهناءة ويشعر بالسعادة ويزول عنه ما كان يهمه ويحزنه.

الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة. ومتاع الغرور.. إنها أكبـــر عـــدو للإنسان.. وها هو ذا أبو نواس، الذى غمر الملأ صيته الماجن العابـــث ينتهى فى حياته بتقرير الحقيقة التى استخلصها من تجاربه، ألا وهى:

**إذا امتحن الدنيا لبيـــب تكشـــفت  له عن عدو فى ثيـــاب صـــديق**

ولنزع حب الدنيا من النفس يجب نزع التفكير أو الحـــديث عنهـــا بخير أو بشر. هكذا رسمت **رابعة** طريق تحرير النفس من ربقـــة الـــدنيا وهو ضرب من ضروب التربية والتوجيه قائم على أسس علمية ونفســـية صحيحة.

دخل عليها رباح القيسى وصالح بن عبد الجليل وكلاب.. فتذاكروا الدنيا فأقبلوا يذمونها فقالت لهم:

– إنى لأرى الدنيا بترابيعها فى قلوبكم!!

– ومن أين توهمت علينا!؟

– إنكم نظرتم إلى أقرب الأشياء من قلوبكم، فتكلمتم فيه[١].

أجل فإن المرء لا يتكلم إلا فى أقرب الأشياء إلى نفسه، ولو كـــان كلامه فيها بشر، وقد بسطت **رابعة** رأيها وشرحته مرة أخـــرى حينمـــا

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزى، جـــ٤، صـــ١٥٨.

زارها أحد علماء البصرة، فأنشأ يتحدث عن شرور هذه الدنيا، فقالت **رابعة:**

أه لابد أنك تحب هذه الدنيا، فإن من أحب شيئاً أكثر ذكره. فمن يريد أن يشترى ثياباً يتحدث عنها كثيراً، فلو أنك تجردت تماماً من هذه الدنيا، فماذا يهمك من خيراتها أو شرورها(١).

وهكذا كانت أستاذة فى فن التربية أو التوجيه، تطرح النظرية ثم تشرحها وتوضح أسسها، وكانت كالطبيب النفسى يحلل بفراسته نفس المريض الذى يعالجه، وقد استمدت هذه الطريقة فى التحليل والتوجيه من أستاذ الأساتذة ومربى الشعوب، سيد الرسل والأنبياء سيدنا محمد ﷺ.. ففى مرة ذم بعضهم الدنيا عندها، وكأنما ظنوا أن الحديث فى هذا الشأن يلقى ارتياحا من **رابعة**.. ولكن إذا بها تقول لهم:

قال رسول الله ﷺ: ((**من أحب شيئاً أكثر من ذكره**)) ذكركم لها دليل على بطالة قلوبكم، إذ لو كنتم غرقى فى غيرها ما ذكرتموها.

وهذا الذى قالته **رابعة** اهتداءً بحديث رسول الله ﷺ هو ما قال به أهل الفراسة أو رجال علم النفس من أن هناك نوعاً من الحيل اللاشعورية يسمى التكثيف، يعبر فيها سلوك الشخص عن النزعتين الكابتة والمكبوتة فى وقت واحد، ثم يوردون من باب ضرب المثل، قصة ذلك الواعظ الدينى الذى كان يؤم المساجد ويعظ الناس وعظا اشتهر أمره وقتا ما، وكان هذا الواعظ يحض على الفضيلة، غير أنه لم يكن يحض

---

(١) تذكرة الأولياء، صـ٦٧.

على الفضيلة بقدر ما كان ينهى عن الرذيلة. ولكن النهى عــن الرذيلــة يحتاج إلى وصفها ووصف بواطنها ومكائدها وما يدعيه الناس فيها مــن الملذات، وكان كثير من الناشئين يذهبون إلى مواعظه يلتمســون فيهــا وصفه الشائق للرذيلة، ويجدون رضاء عن ذلك الوصــف، ويخرجــون وهم يبتسمون لأنهم سمعوا عن الرذيلة أكثر بكثيــر ممــا سـمعوا عــن الفضيلة، وعرفوا عنها مالم يكونوا يعرفون، والقصة واضحة فيما قصدنا إليه، فالدرس الذى يعطيه هذا الواعظ يقصد منه إلــى إرضــاء رغبتــه الظاهرة إلى الفضيلة والتقوى، ولكن نزعته إلى ضدهما تجــد طريقهــا بالرغم منه إلى الظهور فى خلال كلامه فتدفعه وهو لا يدرى إلى وصف الرذيلة وصفاً شائقاً محبباً للكثيرين ممن لا تهمهم الفضيلة فى شىء[١].

ولكن كيف يكون السلوك فى الدنيا، ونحن نعيش فيها؟.. ماذا تريد **رابعة**؟.. أيقتل الإنسان نفسه فى هذه الدنيا ليتخلص منها؟

لا..لا.. معاذ الله أن تقصد **رابعة** هذا المعنى، إنها صورت وظيفة المؤمن فى الحياة فى هذا الحديث الذى يشبه الأحاديث الصحفية، والــذى أدلت به، يوم سألها متفلسف:

- من أين أتيت؟
- من العالم الآخر.
- وإلى أين تذهبين؟
- إلى العالم الآخر.

---

(١) مبادئ التحليل النفسى للأستاذ محمد فؤاد جلال صـــ٦١.

- وماذا تفعلين فى هذه الدنيا؟
- أعبث بها.
- وكيف تعبثين بها؟
- آكل خبزها، وأعمل للآخرة[١]

لقد رسمت **رابعة** سبيل الصالحين فى الحياة، كلوا خبز الدنيا واعملوا للآخرة، فالدنيا عندها تسخرها فى سبيل الآخرة، تأخذ منها خيرها فقط، ولا تعمل فيها إلا عمل الآخرة.

إننا يجب أن نفهم أن وظيفة المؤمنين فى الحياة ليست انقطاعاً للتعبد والنسك فقط، وليست إقبالاً على جمع المال فى الدنيا فحسب ..لا.. إننا يجب أن نفهم أن وظيفتنا فى الدنيا هى تعبُّد الله، تعبده فى كل عمل من أعمالنا وفى كل حركة من حركاتنا، وفى كل سكنة من سكناتنا بمعنى وجوب مراقبة الله فى كل هذه الأعمال، وفهم أننا نقوم بها تقرباً إليه، فنتعبده فى صلاتنا وصيامنا وزكاتنا وحجنا، ونتعبده فيما نؤديه من زراعة أو صناعة أو تجارة أو عمل، ونتعبده فيما ننطق من حديث أو ما نستمع من قول أو ما نلقى إليه من بصر، ونتعبده فى أكلنا وشرابنا ولباسنا وجماعنا، وبمعنى آخر: على المؤمن الصادق أن يحيا فى الدنيا بوجدان حى قوى، وبيقظة روحية مرهفة مضيئة، فيجعل من كل عمل دنيوى عملاً روحياً يسمو ويتصعد به، ويصقله ويطبعه بسمة الخير

---

(١) تذكرة الأولياء جـ١، صـ٦٦.

والخلق، وبهذا لا تتعطل الحياة البشرية، ولا تتعثر المواكب الإنسانية ولا تهبط إلى مادية عمياء مدمرة، ولا تستعبد لرق روحى معطل.

فيقظة الروح أو الوجدان أو القلب هى السبيل الذى رسمته **رابعة** للسلوك فى الحياة، فقد قالت: ليس من المستطاع أن تميز بـالنظر بـين المقامات المختلفة فى الطريق إلى الله، ولا أن تصل إليه باللسان، فلتجعل قلبك مستيقظا، فاذا استيقظ رأيت بعيونه الطريق وكان فى وسعك بلـوغ المقام[١].

**أجل فيقظة القلب هى أول مادة فى دستور الإيمان، منها تسـطع أضواء المعرفة، وعليها أقيمت مراقى السعادة الحقة.**

(١) تذكرة الأولياء جـ١، صـ٦٦.

# ١٢- أم الخير والتوبة

لقد كانت **رابعة** العذراء تفتح بحكمها أبواب التفكير إلى الخير ولذا كان يلقبها كبار المتصوفين بأم الخير.

إن أكثر متصوفى اليوم يظنون أن رسالة المتصوف فى الحياة إن هى إلا أذكار تردد، وحلقات تعقد وتنفض، وينفض معها المريدون بل والشيوخ أنفسهم إلى الدنيا يعبون منها، ويغرقون فى معاصيها.. ولو رجعوا إلى تاريخ السادة من السلف الصالح وطالعوا أقوالهم وحكمهم وأحوالهم لوجدوا أنهم خلفوا تراثاً غنياً بالمثل العليا والأخلاق الكريمة وحسبنا أن نراجع ما سلف من قول **رابعة** عن الدنيا، فلقد تركت مادة غنية طيبة، يستطيع أن ينهل منها رجال علم النفس، ورجال التربية ورجال الأخلاق، ورجال الإصلاح الاجتماعى.

إن وظيفة الرائد أو الشيخ أو المتصوف الصادق التمسك بالمكارم والدعوة إليها، ومعالجة النفوس بتصعيدها من الحضيض الأرضى إلى السمو العلوى، والأخذ بها من ظلمات المادية المتخبطة إلى أضواء الروحانية الساطعة، حيث تتكشف الحقائق، ويرى المرء الداء ويعرف الدواء.

هكذا عالجت رابعة نظرة الحياة إلى الدنيا، وهكذا عالجت نظرتها إلى التوبة، لم تكن تتعبد بألفاظ تتمتم بها فحسب، ولكن كان قلبها يتعبد معها.. وكانت تشرح وتعلم، وتوجه وتؤدب، وتحيط بالألفاظ، وتنفذ إلى صميم المعانى.

سألها أحدهم: إنى قد أكثرت من الذنوب والمعاصى، فلو تبت هل يتوب على؟

فأجابت **رابعة**: لا بل لو تاب عليك لتبت(١).

ولقد يعجب البعض من هذا التعبير، ولكن ألم يقل الله عز وجل فى كتابه الحكيم: ﴿**ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ**﴾ [التوبة:١١٨] وهذا هو ما كانت تعنيه **رابعة** دائماً، فقد سألها سائل يوماً:

- أإذا تاب أحد من عباد الله، **أتقبل توبته؟**

- إذا لم يتفضل عليه الله بالتوبة، **فكيف يتوب؟ وإذا تاب عليه، فلا شك أنه سيتقبل توبته(٢).**

إنها لم تكن تدعو إلى عدم التوبة أو اليأس منها، ولكنها كانت ترى أن التوبة هداية من الله ونعمة، ليشعر المرء أنه مفتقر إلى ربه محتاج إلى إحسانه، فلا تفتنه نفسه، ولا تغره توبته حينما يرى نفسه مقدماً على ربه.. فشتان بين تائب يتوب من الزلات، وبين تائب يتوب من الغفلات عن ذكر رب الأرض والسموات، وتائب يتوب من فتنة النفس وغرورها عند رؤية الحسنات.

ولتزيد رابعة رابطة التائب بالله كانت ترى أن الاستغفار وحده لا يكفي للتوبة، بل كانت ترى أن على طالب التوبة أن يجاهد نفسه للظفر برضاء الله، بعد التجرد من الآثام والخطايا تجرداً كاملاً، ولها فى هذا أقوال مشهورة جرت مجرى الأمثال، وأصبحت دستوراً لطلاب التوبة

---

**(١) الرسالة القشيرية صـ٨٩.**

**(٢) تذكرة الأولياء جـ١، صـ٦٦.**

الصادقة.. فلقد اشتهر عنها فى هذا الصدد جملتها الخالدة "استغفارنا يحتاج إلى استغفار لعدم الصدق فيه"[١] وكانت تستغفر الله بقولها: "أستغفر الله من قلة صدقي في قولي أستغفر الله"[٢].

إن رابعة لم تكن تثبط همم التائبين، ولكنها كانت تريد منهم الصدق والإنابة، فباب الله مفتوح للتائبين، فسبحانه هو الذى قال: **﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾** [الزمر: ٥٣-٥٤].

كان صالح المرى يكثر من قوله: من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له.

فقالت رابعة: إلى متى تقول هذا؟ متى أغلق الباب حتى يستفتح.

فقال صالح: شيخ جَهِلَ وامرأة علمت!!

أجل، امرأة علمت، علِمَت وعلّمت أن التوبة الصادقة فضل من الله وتوفيق، والتوبة الحقة هى مجاهدة النفس للصدق والإنابة، فإن المرء حينما يسمو من درجة النفس الأمارة بالسوء، ينتقل إلى درجة النفس اللوامة، التى تندم وتعترف بالخطأ وتتوب استجابة لقوله تعالى: **﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾** [النور: ٣١] فالتوبة الصادقة نبضة الإيمان الحى.

---

(١) طبقات الأولياء صـ١٠٤ (أ).

(٢) صفة الصفوة. لابن الجوزى، صـ٥٧ (ب).

# ١٣- فى مراقى الصفاء الروحى

كيف وصلت **رابعة** إلى ما وصلت إليه من صفاء روحى؟

إنها صعدت مراقى الصفاء الروحى درجة درجة حتى وصلت إلى ما وصلت إليه. إنها ارتقت مراقى التصوف لا عن تقليد أو تحصيل ولكن عن طبع وموهبة، وكثير من المتصوفين قد أوغلوا فى التصوف فكانت لهم شطحات؛ لأنهم ولجوا طريقاً لا عن إرشاد وقيادة، ولا عن دراسة وعلم وفهم، ولكنهم دفعوا أنفسهم فى خضم دون روية واستعداد مثلهم فى هذا مثل إنسان يفكر فى مشكلة حدثت له، فيجهد أعصاب ذهنه فى التفكير فيها حتى تحترق، ويزيغ عقله، ويطيش تفكيره. ولقد قص علينا أبو القاسم النيسابورى فى كتابه "عقلاء المجانين" قصص الكثيرين ممن فقدوا قوى ضبط تفكيرهم لأنهم أجهدوا أنفسهم فى عبادات أتلفت أعصابهم. فمثلاً قد قص علينا النيسابورى قصة حيونة التى زارت **رابعة**، فلما كان جوف الليل حمل النوم على **رابعة**، فقامت إليها حيونة فركلتها برجلها وهى تقول: قومى، قد جاء عرس المهتدين يا من زين عرائس الليل بنور التهجد(١).

أما **رابعة** فرغم توغلها فى هذا الخضم العظيم احتفظت برجاحة عقلها وإيمانها، لأنها كانت تعرف كيف تفكر، وكانت تعرف إلى أين تسير..

---

(١) عقلاء المجانين، لأبى القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابورى، المتوفى سنة ٤٠٦هـ، صـ١٢٨.

لقد كان التصوف منذ الحسن البصرى حتى أيام **رابعة** لا يخرج عن دائرة الزهد والنسك، ولكن **رابعة** جاءت وغرست فى روضة التصوف ريحانة جديدة، هى ريحانة الحب العلوى.

لقد بدأت **رابعة** حياتها تأخذ نفسها على إرضاء الله، أو بمعنى اخر بدأت تتطبع بطباع الصالحين، فالطبع وليد التطبع.

بدأت وهى صغيرة بأداء فرائض الله، وحفظ القرآن، فلما استرقت وذاقت آلام الرق، لم تجد ملجأ أمامها سوى الله، فأخذت تتقرب إليه بالتعبد والتهجد، ولم تقابل كل ما لاقت إلا بالرضا بقضاء الله..

فلما تحررت رأت أن ذكر الله يطهر القلب من أدران الدنيا، ويدفع بها إلى طريق الله وحده، وأخذت وهى تذكر الله تتذكر الآخرة والحساب فزهدت فى الدنيا، وملأ قلبها الخوف من الساعة وحساب الساعة، فكانت تراقب الله فى كل عمل تقدم عليه. ومقام المراقبة هو مقام الإحسان الذى جاء ذكره فى الحديث الشريف: **((والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك))** .

فلما استغرقت **رابعة** فى مقام المراقبة أفاض الله عليها بالمعرفة **﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾** [العنكبوت:٦٩] وساقها حبها إلى الله إلى نهج جديد.. لمَ تعبد الله؟ أطمعاً فى جنته وخوفاً من ناره؟ أليس الله جديراً بالعبادة والحب ولو لم تكن هناك جنة ونار؟ فصعدت **رابعة** فى مرتقى التصوف من درجة الرضا إلى درجة المحبة.

وهكذا صعدت **رابعة** فوق مراقى الصفاء الروحى درجة درجة من درجة العبادة والزهد.. إلى درجة الرضا بقضاء الله.. إلى درجة المراقبة والإحسان.. إلى درجة المحبة والعرفان..

ولقد تكلمنا عن **رابعة** وزهدها وعبادتها، وهى الدرجة الأولى من مدارج رقيها الروحى، وقد رويت عن زهدها قصص كثيرة وكثيرة جداً.

جاء أمير البصرة إليها يعودها، وقد حمل إليها أموالاً كثيرة وسألها أن تستعين بها على حياتها، فبكت ثم رفعت رأسها إلى السماء ثم قالت: هو يعلم أنى أستحى منه أن أسأله الدنيا وهو يملكها فكيف آخذها ممن لم يملكها[1] وحذرت أمير البصرة أن يعود إلى مثلها.

وأقبل سفيان الثورى ليزورها يوماً، فرأى على بابها تاجر يبدو عليه التردد، فسأله عن حاجته فقال الرجل: أحضرت كيساً من الذهب **لرابعة** وإننى مضطرب لا أدرى أتقبله أم ترفضه، فادخل بالله وأنقذنى من هذا الإحراج، فدخل سفيان وأخبرها أمر الرجل فقالت: إن الله يرزق عباده حتى الذين هم عنه لاهون، فما بالك بمن يكون فى سويداء قلبه محبة يقف دونها الحصر لفاطر السموات عز وجل.

وإذا كانت **رابعة** قد رفضت مثل هذه الهدية، ولا أقول الإحسان لتبين أنها كانت معتمدة على المولى عز وجل، إلا أن هذا الرفض كان يرجع إلى حكمة أخرى قد رواها فريد الدين العطار فى "تذكرة الأولياء"

---

(١) طبقات الأولياء، صـ٢٠٤ (ب)، خط ٤١٦٤ بالظاهرية.

بيد أنه ذكر الحسن البصرى بدلاً من سفيان الثورى، فقد قال عن الحسن البصرى:

ذهبت يوماً إلى **رابعة** أسأل عن أخبار مرضها، فرأيت تاجرا يبكى، فسألته ما يبكيك؟ فأجاب: أتيت إلى **رابعة** بهذا الكيس من الذهب وأخشى أن لا تقبله، فاذهب أنت واطلب منها أن تقبله لعلها تفعل، فدخلت على **رابعة** – هكذا قال الحسن – ولم أكد أخبرها بهذا الذى قاله التاجر حتى نظرت إلى بمؤخر عينها وقالت: إنك أيها الحسن تعرف تماماً أن الله تعالى يعطى الطعام لمن لا يركعون له، فكيف لا يعطيه من يغلى قلبه حباً لجلاله، وهو يرزق من يسبه، أفلا يرزق من يحبه. وأنا منذ عرفت الله صرفت وجهى عن كل مخلوق والآن، فكيف أقبل المال من إنسان ونحن لا نعلم أهو حلال أم حرام!؟ ثم قالت: ذات يوم وضع فى المصباح زيت من بيت السلطان، ورفوت ثوبى الممزق على ضوء المصباح، فظل قلبى طوال أيام مغموراً بالظلمة، ولم يضئ إلا حينما شققت الثوب الذى رفوته، فاعتذر لهذا التاجر ودعه يذهب[١]

فالحكمة أيضا من رفضها الهدية أنها كانت تتحرى المال الحلال وتخشى المال الحرام.

وارتفعت **رابعة** من درجة العبادة والزهد حتى وصلت إلى درجة الرضا، وما أعظم النفس الراضية! وما أدراك ما هى، نفس عالية، أو روح سامية، ترضى بما قسم الله، ترضى بقضائه وقدره، محسنة الظن

---

(١) تذكرة الأولياء، صـ٦٧.

به وبتصاريفه، موقنة بقوله تعالى: ﴿فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء:١٩] ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦] ألم يكن من دعاء الرسول ﷺ: ((**اللهم أسألك الرضا بعد القضاء**)) بهذه النفس الراضية آمنت **رابعة** ودعت إليها.

لقد سئلت يوماً: متى يكون العبد راضيا؟ قالت: إذا سرته المصيبة كما سرته النعمة(١).

وسمعت يوماً رجلاً من العباد يهتف: اللهم ارض عنى.

فقالت له **رابعة**: لو رضيت عن الله لرضى الله عنك.

قال: وكيف أرضى عن الله؟

قالت: يوم تسر بالنقمة سرورك بالنعمة، لأن كليهما من عند الله.

ووقع الجراد على زرع لها فأكله فابتسمت ونظرت إلى السماء هاتفة: إلهى... رزقى عندك، فما أنقصنى الجراد شيئاً، ولا سلبنى رزقاً وإنما هو قضاؤك والرزق عندك(٢).

ثم صعدت **رابعة** من درجة الرضا إلى درجة المراقبة والإحسان كانت تعبد الله، وإحساساتها كلها أنها بين يدى الله، تراه، أو كأنها تراه وهو يراها، والذى يعبد الله فى هذا الجو من الإحساس تصقل روحه وتهذب نفسه، وتنزلق محبة الدنيا عن قلبه، وينتشى بأريج الصفاء الروحى الشذى.

---

(١) الرسالة القشيرية، صـ٨٩.

(٢) طبقات الأولياء، للمناوى، صـ١٠٥ (ب).

ولقد كانت **رابعة** ترى الله معها فى كل مكان، فقد طلبت منها صديقتها عبدة فى يوم من أيام الربيع المشرقة أن تخرج لتتأمل آثار قدرة الله، فقالت لها **رابعة**: بل ادخلى أنت وتعالى وتأملى القدرة فى نفسك وأضافت **رابعة**: إن مهمتى أنا هى أن أتأمل القدرة[١].

فرؤية الله، هى رؤية قدرته وآثاره، وهذا هو ما عناه الإمام على ابن أبى طالب – كرم الله وجهه – حينما سئل: هل نرى ربنا؟

فقال: وكيف نعبد من لا نراه!؟

وهذا هو نفس المعنى الذى رددته **رابعة**، فقد سئلت:

أترين من تعبدينه؟

لو كنت لا أراه ما عبدته[٢].

فإذا وصل المرء إلى هذه الدرجة من الإحسان بمراقبة الله كانت رسالته فى الحياة أن يكون رقيباً على نفسه وعلى جوارحه وعلى قلبه وهذه كانت رسالة **رابعة**.

سألها رجل أعجب بمنطقها: إنك لتصلحين لحراسة رباط!؟

فقالت: إنى حارسة رباط فعلاً، أحفظ داخلى وخارجى، وأحافظ على قلبى[٣].

وأخيراً صعدت **رابعة** إلى درجة الحب العلوى.. الحب الإلهى.

---

(١) تذكرة الأولياء، صـ٦٦.

(٢) تذكرة الأولياء، صـ٦٧.

(٣) رابعة العدوية والحياة الروحية فى الإسلام، صـ٥٦، طبعة ١٩٥٤.

# ١٤- فى سماء الحب الإلهى

هذا الخالق عز شأنه.. ما أكرمه وما أعظمه، وما أكثر نعمه على عباده؟ أليست نعمه العظيمة دليلاً على حبه لنا؟

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب:٤٣]

﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:١٢-١٣]

إذن يا من تتساءلون عن سر الوجود، لم خلق الله الحياة؟ وما رسالتنا؟ وما سبيلنا؟ وما هدفنا؟.. ويحكم، دعوكم من الجدل والفلسفة. فإنه الحب سر هذه الحياة، أحبنا الله فخلقنا وصلى علينا وملائكته وخلق لنا الشمس والقمر، والطير والأنعام، والفلك والدواب، وأخرج لنا الطيبات من الرزق، وإنه الحب، رسالتنا فى الحياة، نحبه وندعو إلى حبه، ونشيع المحبة والرضا والرحمة والسلام بين الناس، وإنه الحب سبيلنا وهدفنا.

ولكن ما الحب؟ إنه أسمى العواطف الإنسانية وأرقها وأعذبها وأقصد بالحب هنا الحب الذى سما عن الحضيض والأهواء والشهوات وطار بأجنحة الإيمان الخالص المجرد، فحلق فى سماء القرب والمعرفة مع أحباب الله العارفين به المحبين له.

إنهم قوم قد امتلأت قلوبهم من معرفة الله، وعمرت بمحبته وخشيته وإجلاله ومراقبته، فسرت المحبة فى أجزائهم، فلم يبق فيهم

عرق ولا مفصل إلا وقد دخله الحب، قد أنساهم حبه ذكر غيره وأوحشهم أنسهم به عن سواه.

قد فنوا بحبه عن حب سواه، وبذكره عن ذكر من سواه، وبخوفه ورجائه والرغبة إليه والرهبة منه والتوكل عليه، والإنابة إليه، والسكون إليه، والتذلل والانكسار بين يديه، عن تعلق ذلك منهم بغيره فإذا وضع أحدهم جنبه على مضجعه صعدت أنفاسه إلى إلهه ومولاه، واجتمع همه عليه متذكراً صفاته العلا، وأسماءه الحسنى مشاهداً له في أسمائه وصفاته، قد تجلت على قلبه أنوارها فانطبع قلبه بمعرفته ومحبته، فبات جسمه فى فراشه يتجافى عن مضجعه وقلبه قد آوى إلى مولاه وحبيبه فآواه إليه وأسجده بين يديه خاضعاً خاشعاً ذليلاً منكسراً من كل جهة من جهاته، فيالها سجدة ما أشرفها من سجدة، لا رفع رأسه منها إلى يوم اللقاء. فشتان بين قلب يبيت عند ربه، قد قطع فى سفره إليه بيداء الأكوان وخرق حجب الطبيعة ولم يقف عند رسم ولا سكن إلى علم حتى دخل على ربه فى داره فشاهد عز سلطانه وعظمة جلاله وعلو شأنه وبهاء كماله، فإذا صارت صفات ربه وأسماؤه مشهداً لقلبه أنسته ذكر غيره وشغلته عن حب سواه، وحديث دواعى قلبه إلى حبه تعالى

فالحب وهج الإيمان المتقد، وصدى العقيدة الصارخة في القلوب والعروق، تلبية لنداء الله، وفزعا من قول الله: **﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ﴾** [التوبة: ٢٤]

أجل.. إذا أعرضتم عن الله، وعن حب الله، وفضلتم عنه أي شيء في الوجود.. فتربصوا حتى يأتي الله بأمره: **﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ﴾** [المائدة: ٥٤]

ولذا فإن المحبة لا تحصل إلا بعد اليقين، ولذا كان أكمل الخلق في المحبة سيد الأولين والآخرين، حتى إن العرب كانت تقول عنه ﷺ: محمد عشق ربه. وكان ﷺ يسأل ربه ويدعوه: ((**اللهم اجعل حبك أحب الأشياء إليّ، وخشيتك أخوف الأشياء عندى، واقطع عنى حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك، وإذا أقررت أعين أهل الدنيا من دنياهم، فأقرر عينى فى عبادتك**))

وقد أوضح ﷺ أن الحب هو السبيل إلى تذوق الإيمان، فقال: ((**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار**))

ما أعذب الحب الإلهى وأحلاه، وما أجمل الحياة التى تفيض بإشراقاته، وتتضوع بنفحاته الطيبة، وتعلوها بسماته الراضية! إنها حياة

سعيدة مشرقة، سعيدة بشوقها المقلق، مشرقة بوجدها المحرق، فالسعادة ليست فى أعراض الدنيا الزائفة، ليست فى المأكل ولا الملبس ولا المشرب ولا فى الدنايا الخادعة واللذات الفانية، سلوا كم من الأغنياء لا يشعرون بالسعادة، كم من الذين يأكلون أشهى الأطعمة ويرتدون أفخم الثياب ويسبحون فى بحار اللهو والمجون، لا يشعرون بالسعادة ولا يتذوقون طعمها؟ إن السعادة ليست فى أعراض المظاهر وقشورها، وإنما هى فى القلب المشرق بحب الله المقبل على ربه فى قفر الذل والفقر يقوده التوق، ويسوقه الشوق، زَادُه الخوف، ورفيقه القلق، وقصده القبول والقرب، وعنده للقاصدين زلفى.

والحب يختلف باختلاف قوته وقصده، ولذا فإن له صوراً ودرجات، وإن كان من العسير تقسيمه إلى أقسام ووضع حدود له وضوابط، فإحساسات القلب ومشاعره أكبر من أن تخضع لتقسيم وتحديد.

ومن علامات المحب الاستجابة لطلب المحبوب وطاعته، وتلبية مطالبه، وتنفيذ أوامره، إنه يهيم ويهم بعزائم الطاعات، وينطلق من قيود الذنوب والزلات، ويسبح فى بحار الأحدية الأزلية ليصل إلى أعلى معالى الدرجات القدسية.. ولذا يقول الشاعر:

**تعصى الإله وأنت تزعم حبه  هذا لعمرى فى الخصال شنيع**

**لو كان حبك صادقاً لأطعته  إن المحب لمن يحب مطيع**

ومن علامات المحب أن يأنس بمحبوبه، فهو فى شوق إليه، يرى أن قرة عينه فى أن يكون جليسه وبين يديه ماثلاً فى حضرته، يحادثه

ويناجيه، ويستوحش البعد عنه، ولذا كانت قرة عينى الرسول فى الصلاة والعبادة لأنه يكون بين يدى محبوبه، ولقد سأل رجل الشبلى: أى صبر أشد على الصابرين؟ فقال: الصبر لله، فقال الرجل: لا. فقال: الصبر مع الله. فقال: لا. فغضب الشبلى وهتف: ويحك فماذا عندك أنت؟ فقال: الصبر عن الله فصاح الشبلى صيحة كادت تتلف روحه.

فالشوق هو انجذاب القلوب إلى مشاهدة المحبوب، وهو نار الله يشعلها فى قلوب أحبابه وأوليائه، حتى يحرق بها ما فى أفئدتهم من الخواطر والإرادات والعوارض، فإذا بلغ العبد حد الشوق استبطأ الموت شوقاً إلى لقاء محبوبه، وأخذ فى التواجد والتطاير إلى حظيرة قربه وكانت أحسن ساعاته ساعة الانتقال إلى الرفيق الأعلى، ساعة الانتقال إلى ربه.

ولقد أوحى الله إلى داود عليه السلام: لو يعلم المُدبرون عنى كيف انتظارى لهم ورفقى بهم وشوقى إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً إلىّ وتقطعت أوصالهم من محبتى.

وعند وصول المحب إلى مقام الشوق يقوى شوقه فيصير صبابة ووجداً، فإذا ذكر اسم من أسماء الله القدسية ارتعشت أوصال المحب وتأجحت فى قلبه نار الأشواق، وطلبت الروح التلاقى والمواصلة ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢]، إن الوجد حالة تسيطر فيها الروح على الجسد سيطرة تامة.. إنه استغراق تام فى نشوة علوية ومن ذا يستطيع أن يتصوره؟ وكيف السبيل إلى وصفه؟ وهل تستطيع أن

تتذوق مالم تذقه وما تذوقه غيرك مهما أوتى من بلاغة فــى التصــوير والتعبير !؟

لقد روت كتب الصحاح حالة من حالات وجد الرســول ﷺ بــالله فقالت: إن عائشة – رضى الله عنها – دخلت عليه ﷺ وهو فى حالة من تلك الحالات، فلما رآها سألها: من أنت؟ قالت: عائشة. فســألها النبــى ثانية: من عائشة؟ فأجابت: ابنة الصديق. فسألها النبى ثالثة: من الصديق؟ فكان الجواب: حمو محمد. فسألها: ومن محمد؟ فلزمت الصمت؛ لأنهــا علمت أن النبى ﷺ فى حالة استغرق فيها الوجد والحب لرب العالمين[١].

وحينما يزداد الشوق والوجد يرتقى المحب إلى درجة الفناء حتــى فى الله يفنى وبالله يبقى. والفناء هنا ليس فناء مادياً، ولكنه فناء معنــوى فناء فى محبة المولى، فناء فى صفات الخالق، فناء تغيب بــه الأكــوان والأحداث عن ناظريه؛ لأنه لا يرى إلا ربه الحبيب القريــب، فتتــوارى عنه الآلام والمحن، ولا يشعر بشىء.. إنه لا يشعر إلا بالله، وقد غــاب عن وعيه كل شىء إلا وجدان الهيام بالمحبوب الأعظم.

وقد تعجب أيها القارئ من مثل هذا القول، ولكن ألــم يــرو لنــا القرآن قصة امرأة العزيز وصويحبات يوسف عليه السلام اللواتى قطعن أيديهن؟ فاستغراقهن فى لذة النظر إلى يوسف غيبهن عن ألم ما دخل عليهن مــن قطع أيديهن[٢].

---

(١) شخصيات صوفية، للأستاذ طه عبد الباقى سرور، صـ٧٧.

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف، للكلاباذى، صـ٩٥، نشرة آربرى بالقاهرة سنة ١٩٣٣.

وقيل: إن **رابعة** قد آلت إلى هذه الحال، فقد ذكر أنها كانت في الصلاة فسجدت على البوارى، فدخلت قطعة قصب في عينها، فلم تشعر بها حتى انصرفت من الصلاة[١].

إن **رابعة** كانت سابحة في فيض من الحب العلوى، مستغرقة في نشوة هذا الوجد السماوى.. فشغلت عن كل شيء في هذا الوجود، حتى عما كان يصيبها من آلام. ففي يوم ضرب رأسها ركن جدار فأدماه، فلم تلتفت لذلك، فقيل لها:

- ما تحسين بالألم؟

- شغلي بموافقة مراده فيما جرى شغلني عن الإحساس بما ترون[٢].

لقد كانت تعيش في جو غير الجو الذي يعيش فيه غيرها.. كانت تحلق في سماء الحب العلوى.

---

(١) تذكرة الأولياء، جـ١، صـ٦٤.

(٢) طبقات الأولياء، صـ١٠٦.

# ١٥- رائدة الحب العلوى

لقد جاءت **رابعة** فوسعت دائرة الحب العلوى، فبعد أن كانت تحب الله حبا طمعاً فى جنته وخوفاً من ناره.. بعد أن كانت تناجى ربها يارب أتحرق بالنار قلباً يحبك، ولساناً يذكرك، وعبداً يخشاك.. بعد أن كانت تعرف أن الحب محصور فى هذه الدائرة الضيقة إذ بها لا تعرف من الحب سوى أنه الفناء فى حب الله لأنه جدير بالحب، وليس خوفاً من النار، ولا طمعاً فى الجنة، إنها كانت تريد كما قالت ألا تكون "أجيرة سوء" فتترك الشر، وتعمل الخير لتنال أجراً هو الجنة[١].

لقد وضعت يوماً النار فى يد، والماء فى اليد الأخرى ثم أنشأت تقول: سأشعل النار فى الجنة، وأسكب الماء على النار حتى ينجاب الغشاءان عن طريق السالكين إلى الله ويتبين مقصودهم ويشاهدوا الله لا يحدوهم أمل ولا يفزعهم خوف، أفإن لم يكن جنة ولا نار لم يعبد الله أحد ولم يطعه أحد!؟

ثم يهتف قلبها المشتعل بالحب والشوق: إن كنت أعبدك خوفاً من نارك فاحرقنى بها، وإن كنت أعبدك طمعا فى جنتك فاحرمنى منها، أما إذا كنت أعبدك من أجل محبتك فامنحنى الجزاء الأكبر، امنحنى مشاهدة وجهك ذى الجلال والإكرام[٢].

---

(١) إتحاف السادة المتقين، صـ٥٧٦.

(٢) تذكرة الأولياء، صـ٦٧.

إنها لم تكن تتمنى سوى مشاهدة وجه الله الكريم، والتمتع بقربه العظيم يوم الحشر الأكبر. وإنها كانت تتمنى أن تحرق الجنة بالنار، وأن تطفئ النار بالماء حتى لا تكون هناك جنة ولا نار؛ لتعرف من هم عباد الله حقا، الذين يعبدونه عبادة لا تشوبها غاية ولا ملق، رغبة فى الجنة أو خوفا من النار. إنها كانت تريد أن تعرف من الذى يعبد الله لأنه هو الخالق المنعم، لا خوفاً من العذاب ولا طمعاً فى الثواب. أما هى فكانت لا تعبده عز وجل لشيء ولا لغاية، فقد كانت تقول: يا رب اجعل النار لأعدائك والجنة لأحبائك، وأما أنا فحسبى أنت.

ولقد سئلت يوماً: ما تقولين فى الجنة؟ قالت: الجار ثم الدار. أى أنها تنشد أولاً رؤية الله قبل الدار أى الجنة.

ولقد روى العطار: أن رابعة كانت تنوح باستمرار، فسئلت لماذا تنوحين وما ثمة ألم هناك تشكين منه؟ فأجابت: واحسرتاه، العلة التى أشكوها ليست مما يستطيع الطبيب علاجه، وما يعيننى على احتمال هذه العلة إلا رجائى أن أحقق غايتى هاتيك فى العالم الآخر، أن أرى وجهه الكريم.

ويروى الكلاباذى أنه دخل جماعة على رابعة يعودونها من شكوى، فقالوا: ما حالك؟ قالت: والله ما أعرف لعلتى سبباً، عُرِضَت علىّ الجنة فملت بقلبى إليها، فأحسب أن مولاى غار علىّ فعاتبنى فله العتبى[1].

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف، الكلاباذى، صـ١٢١.

وروى المناوى فى كتابه "الطبقات" أن سفيان الثورى قال لرابعة: ما حقيقة إيمانك؟ قالت: ما عبدته خوفاً من ناره، ولا حبا لجنته فأكون كالأجير السوء، عبدته حباً وشوقاً إليه.

إن رابعة كانت تريد من الناس أن يعرفوا الله حق المعرفة، فمتى عرف العبد ربه أحبه، وأخلص له الحب والعبادة.. لا طمعاً فى ثواب ولا خوفا من عقاب. وحول هذا المعنى العظيم كان يدور توجيهها الذى عرفت به.

قالت لسفيان الثورى يوماً:

- ما تعدون السخاء فيكم؟

- أما عند أبناء الدنيا فمن يجود بماله، وعند أبناء الآخرة من يجود بنفسه.

- أخطأتم.

- فما السخاء عندكن!؟

- أن تعبده حباً له، لا طلب جزاء ولا مكافأة[١].

وفى يوم سألها أيضا سفيان الثورى:

- أى شىء أفضل أن يتقرب به العبد إلى الله؟

- ألّا تطلب من الدنيا أو الآخرة غيره[٢].

إنها وصلت إلى درجة من الحب الإلهى، دفعها - وهى التقية الصالحة - إلى الجرأة فى القول أحياناً.

---

(١) طبقات الأولياء، للمناوى، صـ١٠٦.

(٢) نفحات الأنس من حضرات القدس، صـ٢٣٦، وشهيدة العشق، صـ١٦١.

فيروى أنها قالت: إلهى! إذا بعثت بى إلى النار يوم البعث فسأصرخ نائحة: ربى، يا من أحبه كل هذا الحب، أهكذا تعامل من يحبونك؟ فسمعت صوتا يقول: يا **رابعة** لا تظنى بنا ظن السوء، لأننا سنعطيك مقاما بين المؤمنين حتى تستطيعى أن تحدثينا عن أسرارنا(١).

إنها كانت أعرف الناس بصدق حبها لله، فكيف يمكن أن تتصور أن الله المحبوب الأعظم سيبعث بها إلى النار؟ ولكن مهما يكن فقد تجاوزت فى الجرأة والتعبير، كما تجاوزته مرة أخرى حين سمعت قارئاً يتلو قوله تعالى: ﴿**إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ**﴾ [يس:٥٥] فقالت: مساكين أهل الجنة فى شغل هم وأزواجهم(٢).

وقد عاب عليها ابن عربى هذه المقالة، وقال: إنها ما عرفت وإنها لمسكينة، فإنما شغلهم إنما هو بالله، إنها ما كانت تدرى أنها تنطق بما يعاب عليها، ولذلك كانت تطلب الرحمة من المولى من كل ذنب ارتكبته متشفعة بحبها، فأنشدت:

**يا حبيب القلب ما لى سواكا   فارحم اليوم مذنبا قد أتاكا**

**يا رجائى وراحتى وسرورى   قد أبى القلب أن يحب سواكا**(٣)

إنها كانت تعيش فى جو من الحب العلوى لا يمكن وصفه فالمحبة فوق الوصف وفوق التعريف وفوق التحديد والتقسيم.

سئلت **رابعة**: كيف رأيت المحبة؟

---

(١) تذكرة الأولياء، صـ٦٧.

(٢) طبقات الأولياء، ورقة ١٠٥ (ب).

(٣) الروض الفائق، صـ١١٧.

فأجابت: ليس للمحب وحبيبه بين، وإنما هو نطق عن شوق ووصف عن ذوق، فمن ذاق عرف، ومن وصف فما اتصف، وكيف تصف شيئا أنت فى حضرته غائب، وبوجوده دائب، وبشهوده ذاهب وبصحوك منه سكران، وبفراغك له ملآن[1] وبسرورك له ولهان، فالهيبة تخرس اللسان عند الأخبار، والحيرة توقف الجنان عن الإظهار، والغيرة تحجب الأبصار عن الأغيار، والدهشة تعقل العقول عن الإقرار، فما ثم إلا دهشة دائمة، وحيرة لازمة، وقلوب هائمة، وأسرار كاتمة، وأجساد من السقم غير سالمة، والمحبة بدولتها الصارمة فى القلوب حاكمة.

**وارحمة للعاشقين! قلوبهم فى تيه ميدان المحبة هائمة**
**قامت قيامة عشقهم فنفوسهم أبداً على قدم التذلل قائمة**
**إما إلى جنات وصل دائم أو نار صد للقلوب ملازمة[2]**

ولرابعة أشعار خالدة فى الحب الإلهى، ومما روى عنها:

**حبيبى ليس يعدله حبيب ولا لسواه فى قلبى نصيب**
**حبيبى غاب عن بصرى وشخصى ولكن فى فؤادى ما يغيب[3]**

وكانت تقول:

---

(١) من قوله تعالى: ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغا﴾ [القصص: ١٠] أى ملآن بذكر الله، وفارغاً من كل شىء آخر، وهذا كما قال المحب:

فرغت قلبها اشتغال بذكرى وكذا كل فارغ مشغول

(٢) "شرح حال الأولياء" تصنيف الشيخ عز الدين بن عبد السلام بن غانم المقدسى، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس، عن كتاب شهيدة العشق الإلهى، صـ١٧٢.

(٣) روض الرياحين، صـ١٠٢، صفة الصفوة، جـ٤، صـ٢٠٢ (ب).

**يا سروري ومنيتي وعمادي وأنيسي وعدتي ومرادي**
**أنت روح الفؤاد أنت رجائي أنت لي مؤنس وشوقك زادي**
**أنت لولاك يا حياتي وأنسي ما تشتت في فسيح البلاد**
**كم بدت منه وكم لك عندي من عطاء ونعمة وأيادي**
**حبك الآن بغيتي ونعيمي وجلاء لعين قلبي الصادي**
**ليس لي عنك ما حييت براح أنت مني مُمَكّن في السواد**
**إن تكن راضياً على فإنني يا منى القلب قد بدا إسعادي[1]**

ومما نسب إليها هذا اللحن الخالد الجميل العذب:

**فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب**
**وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب**
**إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب**

ولكن يظهر أن بعض ما روى من الأشعار ليس **لرابعة**، فبعض هذه الأشعار نسبت في بعض الكتب إلى **رابعة العدوية**، ونسبت في كتب أخرى إلى **رابعة** الشامية. كما أن الأبيات الثلاث الأخيرة **فليتك تحلو والحياة مريرة** منسوبة إلى أبي فراس الحمداني المولود سنة ٣٢٠ والمتوفى سنة٣٥٧، وذلك في قصيدته التي مطلعها.

**أما لجميل عندكن ثواب ولا لمسيئ عندكن متاب**

(١) الروض الفائق في المواعظ والرقائق، للشيخ الحريفيش، صـ١١٧.

وهى قصيدة يعاتب فيها أبناء عمومته[١] وكل ما وقع بين أيدينا من الكتب القديمة لم ترو هذه الأبيات عن **رابعة**، إنما روتها كتب حديثة من باب الاستشهاد وإن نسبتها خطأ إلى **رابعة**، ودليلنا على هذا أن الفاء فى أول **فليتك تحلو** دليل على صلتها بأبيات سابقة من قصيدة، والذين رووا هذه الأبيات عن **رابعة** لم يذكروا الأبيات السابقة التى تدل على أنها من قصيدة، ولذا فنحن نرجح أن هذه الأبيات لأبى فراس وليست **لرابعة**.

**ورابعة** أول من استطاعت أن تقسم المحبة إلى ألوان، حتى تقربها إلى الوجدان والحس، فالحب نوعان، حب الهوى، وحب التعظيم والإجلال فهى تحب الله لأنها أحست به وعرفته من نعمه وآياته وملك حبه عليها كل قلبها، وهى تحبه حب تعظيم وإجلال لأنه أهل لهذا الحب وفى هذا تقول:

**أحبك حبين حب الهوى وحباً لأنك أهل لذاكا**

**فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عمن سواكا**

**وأما الذى أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراكا**

**فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا[٢]**

لو لم يكن فى تاريخ **رابعة** سوى تجسيم الحب الإلهى، وإبراز معناه بهذه القوة والعظمة، وتلقينه لأجيال المسلمين من بعدها حتى تسمو

---

(١) أبو فراس الحمدانى، للسيد محسن الأمين الحسينى العاملى، مطبعة ابن زيدون، بدمشق، سنة ١٩٤١، صـ١٦، وكتاب المستحب من الأدب العربى، المطبعة الأميرية.

(٢) الروض الفائق، صـ١١٧.

نفوسهم وغرائزهم عن دنايا الحواس والشهوات لتحلق فى عالم الطهـر والمعنويات الرفيعة.. لو لم يكن فى تاريخ **رابعة** سوى تأديب الناس بهذا الأدب الرائع لكفاها فخراً، فما فقد المسلمون العزة والسيادة إلا يوم جروا وراء الحب المادى لأنفسهم وشهواتهم مخلفين وراء ظهورهم حـب الله، وحب من أحبوا الله، وحب ما يقرب إلى حب الله.

لقد علمت **رابعة** الناس معنى الحب الإلهى، وأنشدت لهم فى ذلـك أعذب الألحان، ونظمت أجمل الكلمات.

ومما أنشدته فى حبها لله:

**إنى جعلتك فى فـؤادى محـدثى وأبحت جسمى من أراد جلوسى**
**فالجسم منى للجليس مؤانسـى وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى[1]**

ومما قالته أيضاً:

**كأسى وخمـرى والنـديم ثلاثـة وأنا المشوقة فى المحبة رابعـة**
**كأسى المسرة والنعـيم يـديرها ساقى المدام على المدى متتابعة**
**فـإذا نظـرت فـلا أرى إلا لـه وإذا حضرت فـلا أرى إلا معـه**
**يا عـاذلى إنـى أحـب جمالـه تالله ما أذنـى لعـذلك سـامعة**
**كم بت من حرقى وفـرط تعلقـى أجرى عيوناً من عيونى الدامعة**
**لا عبرتى ترقا ولا وصـلى لـه يبقى ولا عينى القريحة هاجعة[2]**

الحب عند **رابعة** هو الفناء فى الله وحده حتى يكون الحب كاملاً.

---

(١) طبقات الأولياء، صـ١٠٥ (أ)، صفة الصفوة، جـ٤، صـ٢٠٢ (ب).

(٢) شرح حال الأولياء، صـ٢٥٣ (أ).

فى يوم سألت مالك بن دينار، وشقيق البلخى، وسفيان الثورى عن معنى الصدق...

فقال سفيان: ليس بصادق فى دعواه، من لم يصبر على ضرب مولاه. فقالت **رابعة:** هذا غرور.

فقال شقيق: ليس بصادق فى دعواه من لم يشكر على ضرب مولاه. فقالت **رابعة:** هنالك ما هو خير من هذا.

فقال مالك: ليس بصادق فى دعواه من لم يتلذذ بضرب مولاه.

فصاحت **رابعة:** بل ثمة أفضل من هذا كله.

فقالوا لها: تكلمى أنت إذن.

فقالت: ليس بصادق فى دعواه من لم ينس الضرب فى مشاهدة مولاه مثل نسوة مصر اللائى نسين آلام أيديهن لما رأين وجه يوسف(١).

هذا هو الفناء فى الله، اصرف وجهك عن كل مخلوق، ووَجِّهْهُ للخالق وحده، فقد قالت: إن ثمرة العلم الروحى أن تصرف وجهك عن المخلوق كيما توجهه إلى الله الخالق وحده؛ لأن المعرفة هى معرفة الله(٢).

ويحكى أنها رأت رجلاً عصب رأسه فسألته:

- لماذا عصبت رأسك؟
- لأنه يؤلمنى.
- وما عمرك؟

---

(١) تذكرة الأولياء، صـ٦٧.

(٢) تذكرة الأولياء، صـ٦٦.

- ثلاثون عاما.

- وخلال هذه الأعوام الثلاثين هل كنت فى غالب أحوالك سليما أو مريضا؟

- كنت فى الغالب سليماً.

- ولما كنت سليماً هل عصبت رأسك يوماً علامة نعمة حتى تشكو الله تعالى الآن بسبب ألم يوم، وتعصب رأسك هكذا[1]؟

إنها لم تكن تعرف سوى فضل الله ونعمته، ومن نعمه الأمر بعبادته، فقد أتى إليها بعض الصالحين فسألت أحدهم:

- وأنت لماذا تعبد الله تعالى؟

- لأنى أخاف النار.

وقال آخر: وأنا أعبده خوفاً من النار وطمعاً فى الجنة.

فقالت: ما أسوأ العبد الذى يعبد الله تعالى رجاء دخول الجنة أو مخافة النار.

فسألوها: وأنت لماذا تعبدين الله؟

فأجابت: أعبده لذاته، أفلا يكفينى نعمة منه أن يأمرنى بعبادته[2]!؟

إنها لم تكن تشعر بالآلام، وإن شعرت فهى راضية بها، راضية بقضاء الله رضاءها بالنعمة، فقد زارها سفيان الثورى يوماً وقال لها:

- أى **رابعة**، ادعى الله حتى يخفف آلامك.

- يا سفيان الثورى، من بعث إلى بهذه الآلام!؟

---

(١) تذكرة الأولياء، صـ٦٦.

(٢) تذكرة الأولياء، صـ٦٦.

- إنه الله تعالى.

- إذا كانت مشيئة الله أن يمتحننى بهذه المحنة، فكيف أتوجه إليه متجاهلة إرادته؟

- أى **رابعة** ماذا يود قلبك؟

- يا سفيان، وأنت الرجل العليم، كيف تنطق بهذه العبارات؟ إن الله تعالى يعلم أن قلبى يريد منذ اثنتى عشرة سنة بلحاً ناضجاً، وهو ليس بنادر فى البصرة ومع هذا فقد بقيت حتى اليوم لا آكل منه، لست إلا عبدة، وليس لى أن أتصرف وفق أهواء قلبى؛ لأنى إذا أردت ولم يرد هو لكان هذا منى جحوداً.

- ليكن! لست بقادر على أن أحدثك فى شئونك، لكن حدثينى أنت عن شئونى.

- لولا ميلك إلى هذه الدنيا لكنت رجلا لا غبار عليك.

- فصرخ سفيان باكياً: إلهى ليتك ترضى عنى!

- ألا تخجل من أن تقول لله: ليتك ترضى عنى دون أن تفعل شيئاً لرضاه[1]؟!

أى حب كان حب **رابعة** لربها؟ وأى رضاء كان رضاؤها؟ وأى إيمان كان إيمانها؟ ما أعظم هذه الدروس التى كانت تلقنها لشيوخ التصوف؟

---

(١) تذكرة الأولياء، صـ٦٧.

ذهب إليها مالك بن دينار، فوجدها تشرب من جرة مكسورة وقد فرشت على الأرض حصيرة عتيقة، ومخدتها من الطين اللبن، فقال مالك وقلبه يغلى:

- يا **رابعة** لى أصدقاء أغنياء، فإن سمحت لى سألتهم أن يعطونى.

- لقد أسأت القول يا مالك، إن الله تعالى هو الذى يرزقنى ويرزقهم، أفمن يرزق الأغنياء لا يرزق الفقراء؟ فإذا كانت هذه مشيئته فنحن من جانبنا نرضى عنها كل الرضا[1].

هكذا كانت **رابعة** توجه وتؤدب كبار المتصوفين فى عصرها وانتزعت مكانة أستاذية حقة وأقامت منارات من الهداية ليستضىء بها طلاب الحب الإلهى.

وكانت **رابعة** تحب رسول الله ﷺ، فهو حبيب الله، وهو حبيب المؤمنين، وقد أرسله الله هادياً ورحمة للعالمين، ولولاه لضل المؤمنون الطريق إلى عبادة الله، وإن منزلة الرسول ﷺ فى قلوب المؤمنين والصالحين لا تدانيها منزلة لأى مخلوق من خلق الله، وإن حب الرسول ﷺ يطغى على قلوب الكثيرين من المتصوفين لأنهم يرون أن حبهم له صلوات الله وسلامه عليه هو عنوان حبهم لله الذى اصطفاه وفضله على العالمين، فهم يحبونه لمنزلته ومقامه عند الله عز وجل، وقد قرن الله تعالى فى بعض آياته حب الله بحب الرسول ﷺ.

---

(١) تذكرة الأولياء، صـ٦٦.

ولقد كانت **رابعة** – رضى الله عنها – تصلى ألف ركعة فى اليوم والليلة، فقيل لها: ما تريدين بهذا؟ قالت: لا أريد به ثوابا، وإنما أفعله لكى يسر به رسول الله يوم القيامة، فيقول للأنبياء انظروا إلى امرأة من أمتى هذا عملها[١].

وسئلت يوماً: كيف حبك للرسول صلوات الله عليه؟

قالت: إنى والله أحبه حباً شديداً، ولكن حب الخالق شغلنى عن حب المخلوقين[٢].

**فرابعة** كانت تحب رسول الله ﷺ حباً شديداً، ولكن بعد أن ارتقت إلى أسمى مراقى الحب والمعرفة بالله لم تشغل إلا بالله وحده الذى كانت لا تنقطع عن التفكير فيه عز وجل.

فالحب عند **رابعة** هو استغراق فى التفكير فى المحبوب والانصراف عن كل ما عداه حتى بغض وكراهية الأعداء، فقد سئلت يوماً:

– أى **رابعة**! أتحبين الله تعالى؟

– أوه! نعم أحبه حقا.

– وهل تكرهين الشيطان؟

إن حبى لله قد منعنى من الاشتغال بكراهية الشيطان[٣].

---

(١) طبقات الأولياء، للمناوى، صـ١٠٤ (أ).

(٢) إتحاف السادة المتقين، للزبيدى، جـ٩، بالهامش صـ٧٢.

(٣) تذكرة الأولياء، صـ٦٦.

# ١٦- كرامات رابعة

وقد روت الكتب التى تحدثت عن **رابعة** عدة كرامات لها والكرامات خصوم وأنصار، وقبل أن نتحدث عن كرامات **رابعة** جدير بنا أن نتساءل: هل الكرامات حقيقة أم خرافة؟

إن الكرامات أمر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد صالح من عباده إكراماً له دون أن يكون للعبد سلطان فى هذا الأمر، أى أن الله تعالى قد يجرى الكرامة على يديه دون قصد ولا إرادة منه. وكيف السبيل إلى إنكار إكرام الله تعالى للصالحين من عباده وإمائه بما شاء مادمنا نرد الأمر إلى الله وحده الذى يفعل ما يريد.. إنها إرادة الله وإرادة الله لا يحكمها شىء سوى **﴿وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاءُ﴾** [إبراهيم:٢٧] فسبحان من بيده ملكوت السموات والأرض، إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون.

أليس الله سبحانه وتعالى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء؟ فهذا إكرام من الله تعالى لهذا الذى دعاه مخلصاً له الدين.

ألم يهيئ الله تعالى لمريم من يأتيها برزقها حتى كانت **﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾** [آل عمران:٣٧] فهذا إكرام من الله تعالى لهذه العذراء البتول التى نذرتها أمها لخدمة الله فطابت نفسها بذلك واطمأنت إليه.

وروى البخارى بالسند عن أبى هريرة ﷺ قال: بعث رسول الله ﷺ عشرة رهط سرية عينا، وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصارى جد عاصم بن عمر بن الخطاب، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهدأة وهو بين عسفان ومكة، وذكروا لحى من هذيل يقال لهم "بنو لحيان"، فنفروا – أى خرجوا – لهم قريباً من مائتى رجل كلهم رام فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمراً تزودوه من المدينة فقالوا: هذا تمر يثرب، فاقتصوا آثارهم، فلما رآهم عاصم وأصحابه لجئوا إلى فدفد – أى مكان مرتفع – وأحاط بهم القوم، فقالوا لهم: انزلوا وأعطونا بأيديكم – أى سلموا ولكم العهد والميثاق – ولا نقتل منكم أحداً. قال عاصم بن ثابت أمير السرية: أما أنا فوالله لا أنزل فى ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك. فرموهم بالنبل فقتلوا عاصماً فى سبعة – أى ضمن سبعة – فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق، منهم خبيب الأنصارى، وابن دثنة، ورجل آخر. فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فأوثقوهم. فقال الرجل الثالث: هذا أوان الغدر، والله لا أصحبكم إن فى هؤلاء لأسوة "يريد القتل" فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم، فقتلوه. فانقلبوا بخبيب وابن دثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر، فابتاع خبيباً بنو الحرث بن عامر بن نوفل ابن عبد مناف، وكان خبيب قد قتل الحرث بن عامر يوم بدر، فلبث خبيب عندهم أسيراً، فأخبرنى عبد الله بن عياض أن بنت الحرث أخبرته أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستحد بها فأعارته، قالت: فأخذ ابنا لى وأنا غافلة حين أتاه، فوجدته مجلسه على فخذه والموسى بيده ففزعت فزعة عرفها خبيب فى وجهى فقال: أتخشين أن أقتله!؟ ما كنت

لأفعل ذلك والله لقد وجدته يوماً يأكل من قطف عنب فى يده، وإنه لموثق بالحديد، وما بمكة من ثمر، وكانت تقول: أنه لرزق من الله رزقه خبيبا فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه فى الحل، قال لهم خبيب: ذرونى أركع ركعتين، فتركوه فركع ركعتين، ثم قال: لولا أن تظنوا أن ما بى جزع لطولتهما، اللهم أحصهم عدداً.

**ولست أبالى حين أُقْتَلُ مسلماً على أى شِقّ كان فى الله مصرعى**

**وذلك فى ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع**

فقتله ابن الحارث، فكان خبيب هو الذى سن الركعتين لكل مسلم قتل صبراً فاستجاب الله لعاصم بن ثابت يوم أصيب، فأخبر الله النبى ﷺ خبرهم وما أصيبوا، وبعث ناس من كفار قريش إلى عاصم حين حدثوا أنه قتل ليأتوا بشىء منه يعرف، وكان قد قتل رجلاً من عظمائهم يوم بدر، فبعث على عاصم مثل الظلة من الدبر – جماعة النحل والزنابير – فحمته من رسلهم، فلم يقدروا على أن يقطعوا من لحمه شيئاً. اهـ.

وهذا الحديث قرة أعين للمؤمنين الذين يعبدون الله وحده ولا يشركون به شيئاً، وقذى فى أعين المشركين الذين يفزعون إلى غير الله فى أوقات الشدائد والكروب.

ألم يستجب الله لعاصم ؓ ويخبر عنه نبيه ﷺ؟

أليست هذه كرامة أكرمه الله بها لصدق إيمانه وقوة يقينه؟ ألم يبعث الله النحل تحمى جثته من أن يعبث بها الكفار أو يمثلوا بها؟ ألم

يكرم الله خبيبا، وهو أسير مكبل بالأغلال، موثق بالحديد فى مكة، فبعث إليه بقطف من العنب، وليس فى مكة يومئذ ثمر(١).

وبعد هذا السند من السنة، لا نجد مجالاً لمكابر فى الكرامات. فقد اشتهر فى عباد الملة أفراد فى ترك الأسباب كلها توكلا على الله تعـالى وثقة به، واشتهر من تسخيره تعالى الأسباب لهم والعناية بهم ما يعسـر على الذكى تأويله بالتخريج على المصادفات المعتادة(٢).

ومن الكرامات التى رويت عن **رابعة** لتبين مدى الرعايـة التـى شملها الله بها ما رواه المناوى فى طبقات الأولياء:

دخل لص حجرتها وهى نائمة وجمع ما لديها من ثياب، ثم طلـب الباب للخروج فلم يجده، فوضع الثياب على الأرض، ثم بحث عن الباب فوجده، فحملها فخفى عليه، فأعاد ذلك مراراً كثيرة، ثم سمع هاتفا يهتف به: دع الثياب، فإنا نحفظها ولا ندعها لك وإن كانت نائمة، قال البـونى معقباً: وهذا تحقيق التمكين بقوله تعالى: ﴿**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِـنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ**﴾ [الرعد:١١].

ويروى أيضاً أنه دخل لص بيتها، فلم يجد غير إبريق، فلمـا أراد الخروج قالت له **رابعة**:

– يا هذا إن كنت من الشطار فلا تخرج بغير شيء.

– إنى لم آخذ شيئاً.

---

(١) صيحة الحق، للشيخ أبو الوفا محمد درويش، صـ٨٨، مطبعة أنصار السنة المحمدية.

(٢) تفسير المنار، للسيد رشيد رضا، الجزء العاشر، صـ٣٦.

يا مسكين، توضأ بهذا الإبريق، وادخل فى هذا المخدع، وصل ركعتين، فإنك ما تخرج إلا بشىء.

وفعل اللص ما أمرته به، فلما قام يصلى، رفعت **رابعة** بصرها إلى السماء، وقالت: سيدى ومولاى، هذا قد أتى بابى ولم يجد شيئا عندى، وقد أوقفته ببابك، فلا تحرمه من فضلك وثوابك.

أى أدب وأى رحمة كان أدبك ورحمتك يا **رابعة**!؟ حتى اللص الذى أراد أن يسىء إليك لا تسيئين إليه، بل تقودينه إلى الهداية، ثم تطلبين له من الله الفضل والثواب! رضى الله عنك يا **رابعة**.

فلما فرغ اللص من صلاة الركعتين، لذت له العبادة، فما برح يصلى إلى آخر الليل، فلما كان وقت السحر، دخلت عليه فوجدته ساجداً وهو يقول فى سجوده معاتباً نفسه:

**إذا ما قال لى ربى أما استحييت تعصينى**
**وتخفى الذنب من خلقى وبالعصيان تأتينى**
**فما قولى له لما يعاتبنى ويقصينى**

فلما انتهى الرجل من ليلته، قالت له **رابعة**: كيف ليلتك؟ فقال: بخير؛ وقفت بين يدى مولاى بذلى وافتقارى، فقبل عذرى، وجبر كسرى، وغفر لى ذنبى، وبلغنى المطلوب.

وانطلق الرجل إلى الطريق هائماً على وجهه، ورفعت **رابعة** كفها إلى السماء وقالت: سيدى ومولاى، هذا وقف ببابك ساعة فقبلته، وأنا قد

عرفتك بين يديك، أتراك قبلتنى!؟ فنوديت فى سرها: يا **رابعة**، من أجلك قبلناه، وبسببك قربناه[١].

ويروى أيضاً أنها زرعت زرعاً فوقع عليه الجراد، فقالت: إلهى رزقى تكفلت به، فإن شئت فأطعمه أعداءك وأولياءك، فطار الجراد كأن لم يكن[٢].

وروى المناوى أن بعضهم كان يدعو **لرابعة**، فرآها فى النوم تقول: هداياك تأتينا على أطباق من نور؛ مخمرة بمناديل من نور.

ويروى أن عالمين ذهبا لزيارتها وكانا جائعين، فقدمت لهما رغيفين كانا عندها، وفى تلك اللحظة جاء شيخ يسألها على الباب، فقدمت إليه الرغيفين، فدهش العالمان، وجلسا يتأملان ما جرى، فشاهدا خادمة تحمل مفرشاً من الخبز وضعته أمام **رابعة**، وقالت: إن سيدتى فى خدمتك، فلما عدت **رابعة** الأرغفة وجدتها ثمانية عشر، فأعادتها إلى الخادمة مع المفرش. وقالت: خذيها واذهبى لقد أخطأت العدد، فقالت الخادمة: كلا لم أخطئ، فقالت **رابعة**: كلا بل ثمة خطأ. فأخذت الخادمة المفرش، وهب إلى سيدتها، وروت لها كل ما حدث، فوضعت السيدة رغيفين آخرين مع بقية الأرغفة وأرسلتها، فأحصت **رابعة** عددها فوجدته عشرين، فوضعتها أمام ضيوفها من العلماء، فلما فرغا من الطعام، سألاها السر فيما حدث فأجابت **رابعة**: لما وصلتم عرفت أنكما

---

**(١) حكايات رابعة العدوية، المخطوط رقم ٢٢٤٢ (أ)، عربى بالفاتيكان، ورقة ٨٣ (أ) شهيدة العشق الإلهى، صـ١٦٧.**

**(٢) طبقات الأولياء، صـ١٠٥ (أ).**

جائعان، فقلت لنفسي: ليس عندى إلا القليل، وفى تلك اللحظة جاء السائل الذى أعطيته الرغيفين، ثم دعوت هذه الدعوة: إلهى، لقد قلت: ﴿**من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها**﴾ [الأنعام:١٦٠] وأنا من أجلك أعطيت رغيفين، فأعطنى عشرة عن كل واحد، فلما جاءت الخادمة بالثمانية عشر رغيفاً قلت لنفسى: إما أن يكون أحد الناس قد أخذ منها اثنين، وإما ألا تكون لنا، ورددتها، فلما أعادتها بزيادة رغيفين، فهمت أن هذه لنا[١].

هذه هى بعض كرامات **رابعة** أكرمها الله بها دون أن يدخل بها الغرور على نفسها، ودون أن تتجر بها؛ لأنها كانت تعلم أن الله تعالى وحده هو الذى يجريها على يديها دون أن يكون لها سلطان أو إرادة عليها، وكانت كثيراً ما تمر بقوم عرفوا فيها العبادة، فقال لها رجل قابلها يوماً فى الطريق: ادعى لى! فالتصقت **رابعة** بالحائط ونظرت إلى الرجل، وقالت له: من أنا يرحمك الله عز وجل؟ أطع ربك وادعه فإنه يجيب المضطر[٢].

ويقول ابن منظور، دخلت على **رابعة** وهى ساجدة، فإذا موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها، فسلمت، فأقبلت على فقالت: يا بنى! لك حاجة؟ فقلت: جئت لأسلم عليك. قال: فبكت وقالت: ستَرك الله اللهم ستَرك، ودعت بدعوات ثم قامت إلى الصلاة وانصرفت[٣].

---

(١) تذكرة الأولياء، للعطار، صـ٦٢.

(٢) سير السالكات المؤمنات الخيرات، لأبى بكر الحصنى، صـ٢٦ (ب)، عنوان التواريخ لصلاح الدين محمد بن شاكر الكتبى، جـ٣، ورقة ٧(ن)، وطبقات الأولياء صـ١٠٥.

(٣) صفة الصفوة، لابن الجوزى، صـ٥٧ (ب).

إنها لم تكن تعبأ بمظاهر ولا كرامات؛ لأن أولياء الله لا يعبأون إلا بطاعتهم له وعبادتهم إياه وانشغالهم به وحده كانشغال **رابعة** بربها حين كانت تناجيه بقولها:

**وتخللت مسلك الروح مني وبه سمي الخليل خليلا**

**فإذا ما نطقت كنت حديثي وإذا ما سكت كنت الغليلا**

وبالرغم من هذا الاهتمام العظيم بذكر الله وطاعته وعبادته حتى أن حبه ملك عليها كل حواسها ومشاعرها، فقد تخلل هذا الحب مسلك الروح منها، وحتى إنها إذا تكلمت كان كلامها عنه سبحانه وتعالى بالرغم من كل هذا، لم يمسها شيء من الغرور؛ إذ كانت تخشى ألا يقبل الله شيئاً من ذكرها ولا عبادتها!!

قيل لها:

- هل عملت عملاً ترينه يقبل منك؟

- إن كان، فمخافتي أن يرد علي[1]؟

وقيل لها مرة أخرى:

- بم ترتجين أكثر ما ترتجين؟

- بيأسي من جل عملي[2]

وحتى ما ظهر من عملها لم تكن تكترث به، فقد كان من قولها: ما ظهر من عملي فلا أعده شيئاً.

---

(١) صفة الصفوة، جـ٤، صـ٥٧ (ب).

(٢) كشكول، لمحمد بهاء الدين العاملي، صـ٣٦٣.

هذا هو الإيمان الصادق.. لا إيمان أولئك الـذين سـيطر علـيهم الغرور فظنوا أنهم السادة المقربون، والصـفوة الواصـلون. إن أمثـال هؤلاء يركبهم العجب والغرور فتحبط أعمالهم.

إن إيمان **رابعة** هو الإيمان الصادق.. إنه إيمان من تخاف ألا يقبل من عملها شيئاً، إنها رددت ذلك المعنى العظيم الذى ردده من قبـل أبـو بكر الصديق ﷺ **فى قوله:**

**لو كانت إحدى رجلى فى الجنة والأخرى خارجها لما أمنت مكر الله.**

**إنها أمثلة أسوقها للأدعياء والمغرورين.**

# ١٧- إلى بيت الله

الحج إلى بيت الله الحرام هو أمنية كل مسلم وأمل المتصوف العابد، ومن ثم فلا عجب أن تحرص **رابعة** على إقامة هذا الركن الخامس من أركان الإسلام، رغم ما كان يعترض الحج فى تلك الأيام من مشقات وأعباء.. انها ذهب تؤدى هذه الفريضة فى شوق ولهفة مصدرهما نظرتها الروحية السامية إلى الحج.. كانت تناجى ربها والركب يقطع الفيافى نحو مكة: إلهى .. وعدت بجزاءين لأمرين، القيام بالحج، والصبر على الشدائد، فإن لم يكن حجى صحيحاً مقبولاً عندك فيا وليلتاه وما أشد هذه المصيبة عندى.

وبينما كان ركب الحجيج سائراً، نفق حمار **رابعة**، فتوقفت عن المسير، وأبت أن ترافق الركب بالرغم من أن من كانوا بالقافلة عرضوا عليها أن يحملوا متاعها على دوابهم، ولكنها قالت لهم: ارحلوا وحدكم ما كان اتكالى عليكم لما ارتحلت، بل ثقتى بالله وحده.

وجلست **رابعة** وحدها قرب حمارها، تدعو ربها وتسأله الرحمة: إلهى، أكذا يفعل الملوك بعبيدهم الضعفاء العاجزين؟ لقد دعوتنى إلى زيارة بيتك، وها أنت ذا تدع حمارى ينفق فى الصحراء وتتركنى فى الخلاء وحيدة

وما كادت تتم كلماتها حتى استجاب الله دعاءها، فرد الحياة إلى الدابة، وحملت **رابعة** عليها المتاع، وانطلقت بها تحلق بالقافلة[١].

---

(١) تذكرة الأولياء، للعطار، صـ٦١.

وكانت **رابعة** وهى فى طريقها إلى البيت الحرام، لا يشغلها شىء سوى الكعبة. ويروى العطار أن **رابعة** كانت بسبيل الحج، فرأت الكعبة قادمة نحوها عبر الصحراء. فقالت: لا أريد الكعبة، بل رب الكعبة، أما الكعبة فماذا أفعل بها؟ ولم تشأ **رابعة** أن تنظر إليها[١] إن فكرتها نبعت من الآية الكريمة: ﴿**فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ**﴾ [قريش:٣].

وكان إبراهيم بن أدهم قد أمضى أربعين سنة ليبلغ الكعبة، لأنه كان يصلى فى كل خطوة ركعتين، فلما بلغ الكعبة لم يجدها فى مكانها فقال نائحاً شاكياً: وا أسفاه، أأظلم بصرى حتى لم أعد أرى الكعبة؟ فسمع صوتاً يقول: يا إبراهيم لست أعمى لكن الكعبة ذهبت للقاء **رابعة**، فتأثر إبراهيم، ثم رأى الكعبة قد عادت إلى مكانها، وشاهد **رابعة** تتقدم مستندة إلى عصا. فقال لها: أى **رابعة** يالجلال أعمالك!! ثم وما تلك الضجة التى تحدثينها فى الدنيا فالكل يقول ذهبت الكعبة للقاء **رابعة**، فأجابته: يا إبراهيم وما تلك الضجة التى تثيرها أنت فى الدنيا بقضائك أربعين عاماً حتى تبلغ هذا المكان؟ فالكل يقولون إبراهيم يتوقف فى كل خطوة ليصلى ركعتين، فقال إبراهيم: نعم أمضيت أربعين عاما أجتاز هذه الصحراء.

هنالك قالت **رابعة**: يا إبراهيم، لقد جئت أنت بالصلاة، أما أنا فقد جئت بالفقر[٢] ثم ذرفت مر العبرات.

---

(١) تذكرة الأولياء، صـ٦٢.

(٢) جاء إبراهيم بالصلاة – أى بالعبادة – ، وجاءت رابعة بالفقر – أى بالزهد والتصوف والنهج الروحى – تذكرة الأولياء، صـ٦٢.

وهنا يحلو لمن لا يحكم على الأشياء إلا حكما ماديـا بالمخـابير والمقاييس والحواس الخمس أن يتخذ مثل هذه الواقعة دليلاً ليحمل علـى التصوف والمتصوفين، وهؤلاء معذورون؛ لأنهم لم يعيشوا فـى الجـو الروحى العظيم الذى يجعلهم يشعرون بما يشعر بـه أصـحاب الأرواح الصافية المحلقة فى سماء الفناء فى الله.. فالنفس حينما يصقلها الإيمـان الخالص، والقلب حينما يتجرد من كل شيء إلا حب الله تسمو الروح إلى ملكوت لا تحده الحدود، ولا تجدى معه المقاييس والمخـابير والحـواس الخمس، فالروح المحلقة وحدها هى التى تستطيع أن تـذوق مـا ذاقتـه **رابعة**، وترى ما رأته **رابعة**، ولا يزال العبد يتقرب إلى الله بالنوافل حتى يحبه، فإذا أحبه كان بصره الذى يبصر به، وسمعه الذى يسمع به، ويـده التى يبطش بها، ويرزقه الله من قوة الحواس ونفاذ البصر والبصيرة مالا يخضع لما تخضع له الماديات، إنه الإيمان ينفذ إلى القلب ويسـتقر فيـه فيفعل الأعاجيب ومالا يخطر على قلب بشر.

وإلا فلماذا تغلب فئةٌ قليلةٌ فئةً كثيرةً، ولماذا ينتصر قليلـو العـدة على كثيرى العدة، وكيف رأى عمر بن الخطاب وهو فى المدينة سـارية وجيشه وهم فى الشام، وكيف سمعوا وهم فى الشام نداءه الـذى أطلقـه وهو فى المدينة؟ إنها إرادة الله وحدها، التى لا يحكمهـا شـيء سـوى مشيئته وسوى إكرامه لعباده الصالحين، وقد سلف بيان هذا عند تحـدثنا عن كرامات **رابعة**.

وقبل أن ندع الكلام عن **رابعة** والحج، لا يفوتنا أن نتحدث عما نسب إليها من قول فى وصف البيت الحرام بأنه الصنم المعبود فى الأرض والله ما ولجه الله ولا خلا منه.

وهذا القول لم يرد فى مصدر معتمد واحد إلا فى مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية جـ١، صـ٨٠.

وبالرغم من أن ابن تيمية وحده هو الذى أورده نجد أحد الكتاب[١] **ينقل نص ما كتبه ابن تيمية ناقصاً مقتضباً ليصل إلى الطعن فى رابعة،** ونجد كاتبة أخرى[٢] تزعم أن **هذا القول متواتر عن رابعة** دون أن توضح مصادر **التواتر، بل ولا مصدر واحد منها.**

**وبالرجوع إلى ما ذكره ابن تميمة، نجده يستبعد هو نفسه صدور مثل هذا التعبير عن رابعة، بل ويقطع بأنها أقوال مكذوبة عليها، وإليك ما جاء فى مجموعة الرسائل والمسائل.**

سئل ابن **تميمة عن قول رابعة أنها حجت فقالت – أى وهى تشير** إلى الكعبة: **هذا الصنم المعبود فى الأرض، وأنه ما ولجه ولا خلا منه** وأجاب ابن تميمة: **وأما ما ذكر عن رابعة من قولها عن البيت أنه الصنم المعبود فى الأرض، فهو كذب على رابعة المؤمنة التقية، ولو قال هذا ما** قال لكان كافراً يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، وهو كذب فإن البيت لا يعبده المسلمون ولكنهم يعبدون رب البيت بالطواف به والصلاة إليه.

---

(١) شهيدة العشق الإلهى، للدكتور عبد الرحمن بدوى، صـ١٣١.

(٢) العاشقة المتصوفة، لوداد السكاكينى، صـ٦٧.

وكذلك ما نقل من قولها، والله ما ولجه الله، ولا خلا منه، كلام باطل عليها.. وقول القائل: ماولج الله فيه كلام صحيح وأما قوله، ما خلا منه، فإن أراد أن ذاته حالة فيه أو ما يشبه هذا المعنى فهو باطل، وهو مناقض لقوله: ما ولج فيه، وإن أراد به أن الاتحاد ملازم له لم يتجدد له ولوج ولم تزل غير حال فيه، فهذا مع أنه كفر وباطل يوجب ألا يكون للبيت مزية على غيره من البيوت، إذ الموجودات كلها عندهم كذلك.

وبالرغم من أن ابن تيمية يقول: أن هذا القول مدسوس على **رابعة** التقية المؤمنة نجد الدكتور عبد الرحمن بدوى يناقض ابن تيمية في تكذيبه لعدم اعتماده على سند تاريخي، سبحان الله! وما هو السند التاريخى أصلاً لنسبته إلى **رابعة**؟ أهو العلم عندكم يا قوم أن ترموا الناس بالظن، تارة بالاستناد إلى قواعد تسمونها عقلية وعلمية، ضاربين بالأسانيد التاريخية عرض الحائط، فإذا فوجئتم بتعليل منطقى أو عقلى أبيتم الأخذ به لعدم تأييده بالسند التاريخى؟ يا قوم أفصحوا عن النيات فماذا تريدون؟

# ١٨- ارجعى إلى ربك

عمرت **رابعة** ثمانين عاماً.. لم تكن أعواما عديدة طويلة فحسب ولكنها كانت أعواماً عريضة أيضاً.. لقد كانت كلها أعواماً مضيئة مباركة حقاً، أشاعت خلالها كما يقول ماسينيون: أريجاً من الولاية والحب لن يتبخر.

يقول محمد بن عمرو: دخلت على **رابعة** وكانت عجوزاً كبيرة بنت ثمانين سنة كأنها الشن تكاد تسقط، ورأيت فى بيتها كراحة بوارى ومشجب قصب فارسى، طوله من الأرض قدر ذراعين، وكوزاً ولبد هو فرشها وهو مصلاها، وكانت إذا ذكرت الموت انتفضت رعدة.

ولما حضرتها الوفاة دعت عبدة بنت أبى شوال التى كانت تخدمها وكانت من خير الإماء، وقالت لها **رابعة**: لا تؤذنى بموتى أحداً، ولفينى فى جبتى[1] – جبة من شعر كانت تقوم فيها إذا هدأت العيون –

إنها لم تُرد أن تشغل الناس بها، ولكن جاءها طائفة من الصالحين جلسوا حولها، فقالت لهم: انهضوا واخرجوا، ودعوا الطريق مفتوحة لرسل الله تعالى، فنهضوا جميعاً وخرجوا، فلما أغلقوا الباب سمعوا صوت **رابعة** وهى تنطقَ بالشهادة، فأجابها صوت: **﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾** [الفجر:٢٧-٣٠].

---

(١) صفة الصفوة، جـ٤، صـ٥٨ (ب)، وروض الرياحين، صـ١٠١.

وعادت النفس المطمئنة إلى حبيبها، لتنعم النعيم الخالـد، وتسـعد السعادة الأبدية، وقد كفنتها عبدة فى جبتها وخمار من الصـوف كانـت تلبسه وذلك كما أوصتها قبل وفاتها.

وسار نعش **رابعة** ونقلت إلى القبر حيث تلقاها الملكان الكريمـان فماذا قالت لهما؟ رئيت **رابعة** بعد موتها فى المنام، فسئلت: بماذا أجبـت منكراً ونكيراً؟ فقالت: أتانى منكر ونكير، فسألانى من ربك؟ فأجبت: أيها الملكان، اذهبا وقولا لحضرة الله تعالى، أنت تأمر بسـؤالى أنـا المـرأة العجوز بين هذا العدد من عبيدك، أنا التى لم أعرف غيـرك، أفنسـيتك مرة، حتى تبعث إلى بمنكر ونكير يسألانى؟[١].

(١) تذكرة الأولياء، صـ٦٧.

وهكذا انتقلت **رابعة** من الحياة الدنيا.. إلى حياة أخرى.. حياة سرمدية، حيث أعد الله لعباده المتقين ما تقر به عيونهم، وتفرح قلوبهم.

قالت خادمتها عبدة: رأيت **رابعة** بعد موتها بسنة أو نحوها في منامي، عليها حلة من إستبرق، وخمار من سندس أخضر، لم أر شيئا أحسن منه. فقلت: أي **رابعة**، ما فعلت بالجبة التي كفّنّاك فيها والخمار الصوف؟ قالت: إنه والله نزع عني، وأبدلت به هذا الذي ترينه علي وطويت أكفاني، وختم عليها، ورفعت في عليين، لتكمل لي بها ثوابها يوم القيامة. فقلت لها: لهذا كنت تعملين أيام الدنيا؟ فقالت: وما هذا عندما رأيت من كرامة الله لأوليائه؟ فقلت: فما فعلت عبيدة بنت أبي كلاب؟ فقالت: هيهات هيهات، سبقتنا والله إلى الدرجات العلى. قلت: وبم وقد كنت عند الناس؟! - أي أكثر منها - قالت: إنها لم تكن تبالي على أي حال أصبحت من الدنيا وأمست. فقلت: فما فعل أبو مالك؟ - يعني ضيغماً - قالت: بخٍ. بخٍ. أعطي والله فوق ما كان يأمل. قلت: فمريني بأمر أتقرب به إلى الله عز وجل. قالت: عليك بكثرة ذكره، أوشك أن تغتبطي بذلك في قبرك[1].

لقد ماتت **رابعة** ولكن خلفت وراءها من الذكريات الحافلة والمعاني السامية، ما جعل كل عارف بها يترحم عليها ويدعو لها.. وكان أكثر الناس دعاء لها من عاصروها وعرفوا فضلها.

---

(١) صفة الصفوة، جـ٤، صـ٥٨ (ب).

قال بعضهم: كنت أدعو **لرابعة العدوية**، فرأيتها فى النوم تقول هداياك تأتينا على أطباق من نور، مخمرة بمناديل من نور[٢].

وقبر **رابعة** لا يعرف مكانه على وجه الجزم والتحديد، فأغلب المراجع تقول أن قبرها فى ظاهر القدس الشريف على رأس طور زينات ولكن الغالب أن هذا القبر **لرابعة الشامية**، لأن **رابعة** توفيت فى البصرة لا فى الشام[٣].

وقد جاء فى "تذكرة الأولياء" و "حلية الأولياء" أنه زار محمد بن أسلم[٤] الطوسى وتعمى الطوسى قبر **رابعة**، فقالا: يا **رابعة** لقد افتخرت بأنك لم تحن رأسك أمام هذه الدنيا ولا الآخرة فأين أنت؟ فصاح صوت من قبرها: حبذا ما حدث لى، ما فعلت، هو ما كان علىّ أن أفعله والطريق الذى اكتشفته هو السبيل السوى.

رضى الله عنك يا **رابعة**، فقد أضأت مصباحاً من المعرفة الإلهية سار فى ضوئه طلاب وجه الله فى حياتك، أمثال سفيان الثورى، ورباح ابن عمرو القيسى، ومالك بن دينار، وظل بعد موتك وسيظل مضيئاً مدى الدهر ليرشد الحيارى، ويهدى الآملين إلى طريق النور، طريق ذكر الله وحب الله ليسيروا فى قافلة المؤمنين الذين قال فيهم الله عز وجل: ﴿والَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ﴾ [البقرة:١٦٥] فيتجنب المجاهدون الجهاد الأكبر – أى جهاد النفس – طريقَ حب الدنيا والتكالب عليها وعلى

---

(٢) طبقات الأولياء، صـ١٠٦ (أ)، وشذرات الذهب، جـ١، صـ١٩٣.

(٣) يؤيد هذا الرأى ابن بطوطة، جـ١، صـ١٣٤، والهراوى فى كتابه "الزيارات".

(٤) محمد بن أسلم الصوفى الشهير والمحدث الذى روى "أبو نعيم" أحاديثه فى "الحلية".

شهوات المادة التى تهبط بالناس إلى الحضيض ولا ترتفع بهم إلى السماء، إلى الحبيب الأعلى.. إلى مقام صدق عند مليك مقتدر.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى:١٤-١٧]

قام بالتصحيح والمراجعة

مكتب الروضة الشريفة

للأبحاث الشرعية واللغوية وتحقيق التراث والتصحيح والمراجعة

القاهرة - مصر

ت: ٥٤٥٩٧٥٠ - ٠١٠٩١٢١٩٥٠

# فهرس


| | |
|---|---|
| ١- مقدمة الكتاب | ٥ |
| ٢- مقدمة الطبعة الأولى | ٩ |
| ٣- الفتاة الرابعة | ١٤ |
| ٤- العابدة الصغيرة | ١٨ |
| ٥- اليوم الموعود | ٢١ |
| ٦- فى قيود الرق | ٢٦ |
| ٧- فى فضاء الحرية | ٢٩ |
| ٨- أين ذهبت؟ | ٣٢ |
| ٩- قوّامة الليل | ٣٦ |
| ١٠- العذراء البتول | ٤٣ |
| ١١- المؤدبة الزاهدة | ٥٠ |
| ١٢- أم الخير والتوبة | ٦٠ |
| ١٣- فى مراقى الصفاء الروحى | ٦٣ |
| ١٤- فى سماء الحب الإلهى | ٦٩ |
| ١٥- رائدة الحب الإلهى | ٧٦ |
| ١٦- كرامات رابعة | ٨٩ |
| ١٧- إلى بيت الله | ٩٨ |
| ١٨- ارجعى إلى ربك | ١٠٣ |